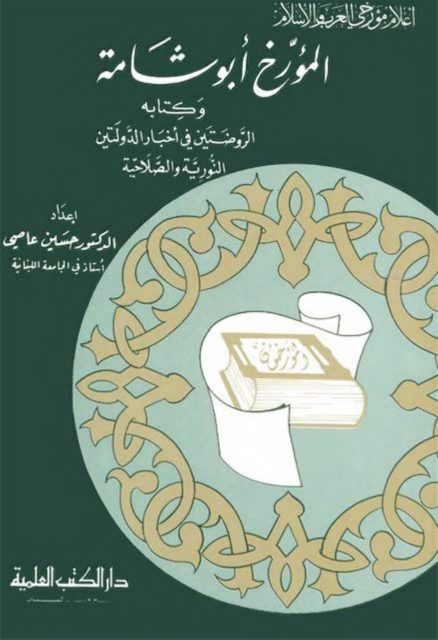


أعلام مؤرخي العرب والإسلام
المؤرّخ أبو شامة
وكتابه
الروضتين في أخبار الدولتين
النورية والصلاحية
إعداد
الدكتور حسين عاصي
أستاذ في الجامعة اللبنانية
دار الكتب العلمية

أعلام مؤرخي العرب والإسلام

المؤرّخ أبو شامة

وكتابه

الرّوضتين في أخبار الدّولتين النّوريّة والصّلاحيّة

إعداد
الدكتور حسين عاصي
أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

تصدير

شهد وطننا العربي ست حملات صليبية منذ نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. ففي عام ١٠٩٧م ابتدأت أولى هذه الحملات عندما عبر الصليبيون من الشرق والغرب ومن القسطنطينية وتقدموا في آسيا الصغرى، ثم في بلاد الشام. وفي عام ١٠٩٩ اشبع الغرب مطامعه الإستعمارية تحت ستار الدين والحرب المقدسة واستولى على نفس البقعة التي قامت عليها إسرائيل وزاد عليها بلاد الساحل، وأسسوا لهم أربع إمارات صليبية، هي: الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس. وقد مارس الصليبيون الوحشية والغدر في حروبهم وقتلوا كل مسلم صادفوه، وبلغت ضحايا بيت المقدس وحدها سبعين ألف قتيل من المسلمين الذين لجأوا إلى بيت المقدس.

وتوالت الحملات الصليبية، واتجهت إلى مصر، وكان أهمها حملة لويس التاسع ملك فرنسا عام ١٢٤٨. وقد هزم فيها لويس وأسر في مدينة المنصورة، ودفع الفرنسيون فدية له قدرها ثمانمائة ألف قطعة من الذهب. واتجه الصليبيون بعد

ذلك إلى تونس وهاجموها ومات فيها لويس ودفن في قرطاجة. وقد بقي الصليبيون في ربوع الشام حوالي مائتي سنة قبل أن يتمكن العرب من طردهم والتخلص من استعمارهم الرهيب.

وعندما جاء الإستعمار الصليبي إلى بلادنا، وصفت أوروبا حملاتها بأنها حرب دينية، اضطرهم إليها تعصب الأتراك السلاجقة واضطهادهم للحجاج الأوروبيين القادمين إلى بيت المقدس وما كان هذا الإدعاء إلا ذريعة ماكرة للغزو، وما كانت الحملات الصليبية في واقع الأمر إلّا استعماراً سياسياً وإقتصادياً لهذه المنطقة الهامة في العالم.

وكان أسرع الناس استجابة لدعوة البابا أربان الثاني للقيام بهذه الحملات هم امراء الإقطاع في أوروبا بحثاً عن أرض جديدة تصلح للاستغلال بعد أن ضاقت رقعة قارتهم بجشعهم. وكان الحجاج الأوروبيون يعودون بقصص خيالية عن غنى الشرق. ممّا حرك شهية الأمراء الأوروبيين إلى السلب والنهب والغنيمة.

وقد أشار البابا أربان الثاني إلى تلك الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً في خطاب دعوته للحروب الصليبية. قالها لملايين الجياع من أرقاء الأرض الأوروبيين الرازحين في أحضان الظلم والفقر في خدمة أمراء الإقطاع. وفي وقت اجتاحت فيه

أوروبا المجاعة والحروب. وزاد البابا حين أعلن بأن المشاركة في هذه الحملات تسقط دين المدينين، وتبرىء ذمة المفلسين، وتسقط أحكام المحاكم وتغفر الذنوب للقتلة والسفّاحين.

وطمعت المدن التجارية في أوروبا مثل البندقية وجنوة وبيزا وبرشلونة وفلورنسا في أن تجني الأرباح الهائلة من احتكار التجارة بين الشرق والغرب والسيطرة على الطرق التجارية المارة بالوطن العربي، والقضاء على البحرية العربية الإسلامية التجارية، وذلك عن طريق تحويل الجيوش الأوروبية المتجهة إلى الحرب، ونقلها إلى ميادين القتال. واتخذت من هذه الحرب فرصة لتنشيط تجارتها، حتى وإن تعاملت مع الفريقين المتصارعين: العرب والصليبيين، في آن معاً. مما اضطر الكنيسة أن تصدر قراراً يقضي بالحرمان من الغفران فضلاً عن مصادرة الأموال والحرية الشخصية لكل من يجرؤ على أن يبيع المسلمين حديداً أو أسلحة أو خشباً لبناء السفن أو يبيعهم قوارب جاهزة أو يدخل في خدمتهم كربان سفينة.

لقد احتل الصليبيون معظم بلاد الشام وأقاموا الإمارات الصليبية وحاكوا المؤامرات والدسائس ضد الحكام المسلمين. ووجهوا الحملات المسلحة ضد المدن العربية

وقطعوا الطرق وقاموا بعمليات السلب والنهب ما استطاعوا. وكان خطرهـم قومياً ودينياً. ذلك أنه موجّه ضد الأمة العربية الإسلامية أو الأمة الشرقية بالنسبة للصليبيين. فكان الصليبي يرى في الشرقي، مسلماً أو مسيحياً عدوه اللدود.

كان الخطر يتهدد الأمة العربية والمسلمين. ومن ثم كان من الطبيعي أن يسعوا لتوحيد طاقاتهم وحشد امكانياتهم من أجل النصر، لأن العدو لم يتمكن منها إلّا لأنها مفككة ومجزّأة. وهذا درس من دروس التاريخ بل لعله اثمن دروس الماضي والحاضر والمستقبل معاً. لقد انفرطت وحدة العرب والمسلمين حين تمكن الأتراك السلاجقة من السيطرة على الخلافة العباسية، وحين استولى الفاطميون على الشمال الافريقي ومصر والشام وأقاموا خلافة تتنافس وتتصارع مع الخلافة العباسية. وكان الحكام يحاربون بعضهم بعضاً ويختلفون لأتفه الأسباب بسبب الدسائس والمؤامرات. بل بلغ الأمر بهم أن أخذوا يستنجدون بالصليبيين ويعقدون معهم الإتفاقات والمعاهدات.

لقد جاءت الحملات الصليبية في وقت تفرقت فيه كلمة العرب والمسلمين. ولولا إنقسامهم على أنفسهم وتفككهم السياسي وانشغالهم بالتنافس على السلطة لما تمكن

الصليبيون من وطنهم. حقيقة أن المسلمين لم يفتروا لحظة واحدة عن قتال الصليبيين، إلاّ أن الشجاعة مع تفرق الكلمة لم يفلحا في انتزاع النصر، ولقد وعى العرب والمسلمون هذا الدرس جيداً، وهو أن الوحدة خير سلاح ضد اعداء العروبة والإسلام. ولولا وجود الرجعيين والمستغلين لاستقام الأمر للعرب على طول التاريخ.

مع آل زنكي كانت الصحوة، وكانت وحدة الجبهة الإسلامة ضد الصليبيين. هذه الوحدة التي ترسخت على يد صلاح الدين ربيب نور الدين زنكي وخليفته في حمل رسالته فاجمع العرب والمسلمون على كلمة واحدة سواء وبدأوا زحفهم المقدس على الصليبيين وفي سنة ١١٨٧م دخل المسلمون القدس بقيادة صلاح الدين وحرروا المسجد الأقصى.

لكن الموت غيّب صلاح الدين الأيوبي والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على صدور العرب والمسلمين، متربصاً بهم الدوائر بعد أن أوشك البناء الشامخ الذي شاده نور الدين وصلاح الدين ان يتهدم، وأوشكت الوحدة القويّة التي جهدا في تكوينها أن ينفصم عراها. فما من خلفاء صلاح الدين كان خليقاً أن تجتمع عليه الكلمة ويفرض هيبته على

الجميع، ولم يلبث النزاع والتخاصم أن دبّ بين الإخوة والأقارب وانصرفت جهودهم إلى المنازعات الأسرية في وقت كان المسلمون أحوج ما يكونون فيه إلى الوحدة لافشال مخططات الصليبيين الذين استغلوا فرصة انشغال الأيوبيين في مشاكلهم الخاصة ليتوسعوا على حسابهم ولينالوا سلماً ما عجزوا عن الحصول عليه بوسائلهم العسكرية. ومن ثم راح الغيارى من المسلمين يستذكرون أيام الجهاد الخوالي ويأملون أن يمن الله عليهم ويلقي الهداية في قلوب حكامهم فيجمعوا أمرهم ويتوحدوا ويقتفوا سبيل السلف الصالح في حمل راية الجهاد ومن هنا ندرك سر اهتمام أبي شامة بالرجلين ودولتيهما، وهو الذي ولد ولم يكن قد انقضى على وفاة صلاح الدين أكثر من عشر سنوات، فكانت ذكراهما لا تزال حيّة في النفوس والأذهان. لذا افرد للدولتين النورية الزنكية والصلاحية الأيوبية كتاباً مخصوصاً لينعش بذكر سيرتهما ذاكرة خلفائهم علهم ينهجون نهجهم ويتناسون مصالحهم الشخصية وأنانياتهم الضيّقة ويعاودون حمل رسالة الجهاد. ومن هنا أيضاً اهتمامنا بأبي شامة واحتفالنا بكتابه.

لقد قسمنا هذه الدراسة إلى فصول ثلاث، يتناول الفصل الأول سيرة حياة أبي شامة ومؤلفاته، ويعرض الفصل الثاني للعوامل الممهدة لظهور آل زنكي والأيوبيين على مسرح

الأحداث السياسية بينما خصّصنا الفصل الثالث للدراسة التحليلية لكتاب الروضتين. والحقنا في الخاتمة منتخبات من الكتاب آملين أن نكون قد وفينا بالقصد، ومتمثلين بقول العماد الأصفهاني:

«إنني رأيت أنه لا يكتب أنساناً كتاباً في يومه إلاّ قال في غده: لو غيرّ هذ لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن. ولو قدّم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من عظيم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على البشر».



الفصل الأول

المؤرخ أبو شامة

سيرة حياته ومؤلفاته

١ ـ حياته:

هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد المقدسي الشافعي المعروف بأبي شامة، لأنه كان به شامة فوق حاجبه الأيسر، وكان يلقب بشهاب الدين ويكنى بأبي القاسم محمد.

وولد أبو شامة في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة ٥٩٩هـ الموافق العاشر من شهر كانون الثاني١٢٠٣م، بدمشق في حي متواضع من أحيائها يعرف بدرب الفواخير، القريب من الباب الشرقي، في أسرة متواضعة لا تكاد تتميز بتفوق خاص في الحياة العلمية أو السياسية، كما لم تترك لنا كتب التراجم عنها شيئاً ذا أهمية. وكل ما نعرفه عن هذه الأسرة، عن طريق أبي شامة نفسه، أن مؤسس هذه الأسرة هو أبو بكر محمد بن

أحمد بن أبي القاسم علي الطوسي، المقرىء الصوفي. إمام صخرة بيت المقدس، قتل على يد الصليبيين، فيمن قتل، بعد فتحهم للقدس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩ وأصبح من الشهداء الذين تزار قبورهم، ويلاحظ أن أبا شامة يتشكك في أن هذا الشهيد هو مؤسس أسرته، ويظهر هذ التشكك من خلال حديثه في المذيّل، إذ قدّم له بقوله:

«ولعل محمداً الذي انتهى إليه النسب هو أبو بكر.........»

ويقرر أبو شامة أنه نقل هذه الحقيقة عن ابن عساكر[1]. وعلى هذا لم يبق أمام أسرته إلّا الرحيل عن القدس، فخرجوا منها إلى دمشق واستقروا في بعض أحيائها قريباً من الباب الشرقي.

ولم يظهر لأحدٍ من أفراد أسرة أبي شامة، بعد هذا، نشاط ذو شأن يحدثنا عنه أبو شامة أكثر من واحد منها هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، الذي اشتغل بتعليم الصبيان في مكتب، بباب الجامع الشامي، حتى توفي سنة ٦٠٥ بعد أن عمر تسعين عاماً[2] أما إسماعيل والد أبي شامة،

---

(١) أبو شامة: المذيّل على الروضتين (وقد طبع خطأ باسم الذيل) ص ٣٧.
(٢) أبو شامة: نفسه ص ٦٥.

الذي توفي سنة ٦٣٨ هـ، فقد انجب ولدين: إبراهيم في سنة ٥٩١ هـ وعبد الرحمن «أباشامة» سنة ٥٩٩ هـ. ويبدو أن والد أبي شامة وأخاه إبراهيم لم يحظيا بدرجة عالية من الثقافة، كما يتضح من رؤيا[1] يقصها أبو شامة عن أخيه الذي رأى والده يقول له في المنام: «عليك بالعلم، انظر إلى منزلة أخيك، فنظر فإذا هو في رأس جبل، والوالد والرائي يمشيان في أسفله».

ويورد أبو شامة في الترجمة التي كتبها لنفسه، كثيراً من الرؤى التي رآها بنفسه أو رآها غيره عنه. فقد رأت والدته، وكانت لا تزال حاملاً به، كأنها في أعلى مكان من المئذنة عند هلالها وهي تؤذن. فقصصت رؤياها على من يجيد التعبير عن الرؤيا فقال: تلدين ذكراً ينتشر ذكره في الأرض بالعلم والخير.

ورأى أبو شامة. في صفر سنة ٦٢٤ هـ كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج، وكان له به خصوصية من افضاء امره إليه والتحدث معه في أمور المسلمين، وهو يمشي إلى جانبه ملاصقاً منكبه، حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل، وهو يخبرهم وكأنه واسطة بينه وبين الناس.

---

(١) أبو شامة: نفسه ص ٣٨ ـ ٣٩ وكذلك ٢٢١ ـ ٢٣٧.

وفي هذه السنة أيضاً، أي سنة ٦٢٤ هـ، رأى أيضاً كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام داخل باب الرحمة بالبيت المقدس وقد أراد فتحه، وثمّ من يمنع عن فتحه ويدفعونه لينغلق فما زالا يعالجان الأمر حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً بحيث اسند كل مصراع إلى الحائط الذي خلفه. ورأى أيضاً في جمادى الأخرة من السنة نفسها كأن المسلمين في صلاة الجمعة في حر شديد وهو خائف عليهم من العطش ولا ماء ثمّ يُعرف، فنظر إلى قليب ماء قريباً منه وحوض، فخطر له أن يسقي من ذلك القليب ويسكب في الحوض حتى يشرب منه الناس إذا انصرفوا من الصلاة. فاستقى شخص قبله لا يعرفه دلواً ودلوين. ثم اخذ الدلو منه فاستقى دلاء كثيرة لم يعرف عددها وسكب في الحوض.

ورآه المهتار هلال بن مازن الحراني متقلداً هيكلاً وهو يقول: انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله. ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا، وهي قرية من قرى غوطة دمشق، وكأنهم سئلوا ما شأنهم. قالوا: ننتظر النبي ﷺ يُصلّي بنا. قالت: فحضر (يعني أبا شامة) فصلى بهم.

وجاءه رجل يستفتيه وهو بالمجلس الكبير الذي للكتب، في صدر الايوان بالمدرسة العادلية وهو الموضع الذي

يجلس فيه عادة للفتوى، ومنه يخرج إلى الصلاة بهذه المدرسة. فتعجبُ الرجل، فقيل له مِمّ تتعجب؟ قال: هذا مكان ما رأيته قط. قال: ورأيت في المنام كأني كنت بهذه المدرسة العادلية وفيها خلق كثير، وكأن قائلاً يقول للناس: تنحوّا فالنبي ﷺ يمر. قال: فنظرت فخرج علينا من المجلس الذي للكتب، ومرّ كما هو إلى المحراب.

ورأى الصلاح الصوفي أول ليلة من جمادى الآخرة سنة ٦٥٥هـ كأن أبا شامة متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه تزوداً تاماً يُعجب منه الرائي.

ورأى حسن الحجازي في شهر رمضان سنة ٦٥٧هـ كأن قائلاً في عالم الغيب لا يراه بل يسمع صوته يقول: الشيخ أبو شامة نبي هذا الوقت.

ورأى أخاه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، وهو اسنّ من أبي شامة بنحو تسع سنين، وكان من الصالحين، كأن أبا شامة متمسك بحبل قد دلي من السماء وهو مرتفع فيه، فسأل إنساناً عن ذلك في المنام، فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى. فقال له ذلك الإنسان: من بنى هذا المسجد فقال: سليمان بن داود. فقال: أعطي أخوك مثل ما أعطي سليمان. فقال له: كيف ذلك؟ فقال: أليس

سليمان أوتي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. أليس اعطي كذا وكذا، وعدّد أنواع ما أوتي. فقال: بلى. قال: وكذا أخوك أوتي أنواعاً من العلم كثيرة.

هذه المنامات التي أوردها أبو شامة في الترجمة التي كتبها لنفسه. سواء التي رآها بنفسه أو رآها غيره عنه يستدل بها على كثير من تطورات حياته. وإن كان أبو شامة يخبرنا أنه سطرها في مذيّلة تحدثاً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه في قوله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ واعتبرها من البشائر حيث قال النبي ﷺ: لم يبق من المبشرات إلاّ الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له[1].

وعندما بلغ أبو شامة العاشرة من العمر فاجأ أباه بقوله: قد ختمت القرآن حفظاً، فتعجّب أبوه من ذلك، كما كان يتعجب من ولع أبي شامة بالتردد على المكتب وسعيه في طلب العلم وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان[2] ثم لم يلبث أبو شامة أن بدأ دراسة القراءات السبع، والفقه والعربية والحديث. وبعد أن أتقن هذه الدارسات وفرغ

---

(١) أبو شامة: نفسه ص ٣٩.

(٢) أبو شامة: نفسه ص ٣٧.

منها، رأى أن يصرف بعض عمره إلى الدراسة التاريخية حتى يستكمل ثقافته الدينية و«يحوز بذلك سنة العلم وفرضه».

وإذا تتبعنا حياة أبي شامة في مرحلة طلبه العلم، ثم فيما أعقب هذه المرحلة. لتبين وضعه في هذه الظروف الإجتماعية التي عاش فيها كثير من انداده العلماء. وجدنا الغموض يكتنف حياته في جميع مراحلها، فهو مقتصد في الحديث. اللهم إلاّ في بعض الفترات القصيرة التي نجد عنها إشارات موجزة مختصرة، يذكرها أبو شامة بين حين وآخر فتلقي بصيصاً من الضوء على حياته، في هذه الفترات القصيرة.

وأولى هذه الإشارات يرجع إلى سنة ٦١٥هـ، عند ما كان في السادسة عشرة من عمره، ففي هذه السنة نجده مقيماً في المدرسة العزيزية[1] بدمشق. ثم لا نلبث أن نجد بعد هذا إشارة إلى أنه أتم دراسة علم القراءات في السنة التالية. أي

(١) المدرسة العزيزية كانت تقع ملاصقة للجامع الأموي أسسها العزيز بن صلاح الدين الأيوبي وأوقف عليها قرية محجمة من عمل أزرع بحوران. درست ولم يبق منها شيء. وكان والي سوريا العثماني. ضياء باشا، قد هدمها وجعلها حديقة ضمت إلى مدفن صلاح الدين في أواخر القرن الماضي أنظر.
- النعيمي: الدارس في المدارس ٣٨٢/١
- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ٢٣٩/٢.
- محمد كرد علي: خطط الشام ٨٨/٦
- حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ١١٤ - ١٢٢.

سنة ٦١٦هـ. وقد يفهم من هذا أن صلته بهذه المدرسة انقطعت منذ نجح في إتمام دراسته لهذا الفرع من العلوم. حجّ مع والده سنة ٦٢١ هـ، ثم في السنة التي بعدها أي سنة ٦٢٢ هـ، وزار القدس سنة ٦٢٤ هـ بصحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام، وزار مصر سنة ٦٢٨هـ زيارة علمية دراسية، استمع فيها إلى أساتذة دمياط والقاهرة والإسكندرية، ولا نجد بعد هذا شيئاً يذكر عن حياة أبي شامة إلا إشارة مقتضبة في سنة ٦٣٤هـ، وأخريات في سنوات ٦٤٤، ٦٤٨، ٦٥٤، ٦٥٦، وكلها إشارات غير مباشرة وردت في أثناء تسجيله لبعض الحوادث أو الوفيات. ومن الممكن الإستدلال بها على أنه كان يقيم في هذه السنوات في المدرسة العادلية[1] بدمشق. ونحن لا ندري إذا كان أبو شامة قد استمر مقيماً في هذ المدرسة بعد

(١) تقع المدرسة العادلية شمال الجامع الأموي باتجاه المدرسة الظاهرية أنشأها الملك العادل الأول الأيوبي شقيق السلطان صلاح الدين سنة ٦١٢ وأوقف عليها أوقافاً كثيرة فيها وضع أبو شامة كتابه الروضتين. والعادلية اليوم هي مقر المجمع العلمي العربي بدمشق الذي تأسس سنة ١٩١٩ بعد أن رُممت بما يقربها نظرياً من الهندسة الأصلية وجعل قسم منها متحفاً للآثار الإسلامية أنظر:
- النعيمي: الدارس في المدارس ٣٥٩/١
- محمد كرد علي: خطط الشام ٨٨/٦.
- أبو شامة: الروضتين ٢١٤/١
- حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ١٢٩ - ١٣٥.

سنة ٦٥٦ هـ حتى انتقل منها سنة ٦٦٠ هـ إلى المدرسة الركنية[١] عندما عيّن مدرساً لها[٢] كما أنه من غير الممكن الجزم بتاريخ انتقاله من المدرسة العزيزية التي كان مقيماً بها حوالي ٦١٥ هـ إلى المدرسة العادلية التي ثبت استقراره بها سنة ٦٣٤هـ. ويبدو أن إقامة أبي شامة بهذه المدرسة الأخيرة بين سنتي ٦٣٤، ٦٥٦هـ كانت متصلة، لم يقطعها إلا مدة

---

(١) كانت المدرسة الركنية إلى الشمال من المدرستين الأقباليتين، وشرقي المدرسة العزية الجوانية والفلكية. درست ولم يبق منها شيء. منشئها وواقفها الأمير ركن الدين منكورس المتوفى سنة ٦٣١ وهو عتيق فلك الدين سليمان بن شروة بن جلدك أخي العادل الأول الأيوبي لأمه الذي هو واقف المدرسة الفلكية. والأمير ركن الدين هو الذي أنشأ المدرسة الركنية البرانية التي هي على الحنفية بسفح قاسيون وكان أنشأ هذه المدرسة سنة ٦٢٦هـ. وقد ابتدأ أبو شامة التدريس في هذه المدرسة سنة ٦٦٠هـ يوم الأربعاء الثاني عشر من محرم بدرس من مختصر المزني بحضور قاضي القضاة وغيره.

- أبو شامة: المذيل ٢١٦ - محمد كرد علي: خطط الشام ٦/ ٨٠ - ٨١.
- النعيمي: الدارس في المدارس ١/ ٢٥٣
- حسن شميساني: مدارس دمشق ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) سبق للملك المعظم ابن صلاح الدين أن فوّض أبا شامة التدريس بمدرسة شبل الدولة بقاسيون وذلك سنة ٦٢٣م. وهذه المدرسة من إنشاء الطواشي شبل الدولة كافور الحسامي سنة ٦٢٢ أنظر:

- أبو شامة: المذيل ص ١٤٨ - ١٥٠ - ابن شداد: الإعلاق الخطيرة ٢/ ٢٢٧.
- النعيمي: الدارس في المدارس ١/ ٥٣٠
- حسن شميساني: مدارس دمشق ص ١٦١ - ١٦٤.

انصرافه إلى بساتينه الخاصة. هذا الغموض الذي يحيط بحياة أبي شامة يمتد حتى يخفي عنا الوظائف التي كان يشغلها ويعتمد عليها في حياته، غير أنا نجده يشير إلى أن الاختيار وقع عليه، سنة ٦٣٥هـ ليكون أحد المعدّلين بدمشق[١]. ويذكر أن نائبه في الصلاة بالمدرسة العادلية، الشيخ شمس الدين محمود النابلسي، توفي سنة ٦٥٦هـ[٢]. وقد ناب الشيخ النابلسي عن أبي شامة في مناسبتين لم يحدّد تاريخهما، الأولى مدة مرضه، والثانية في المدة التي انصرف فيها أبو شامة عن المدرسة إلى بساتينه الخاصة يفلحها ويعمل فيها بنفسه، معرضاً عن الأوقاف، متحرراً من قيودها.

وعندما بلغ أبو شامة الستين من عمره تولى التدريس في المدرسة الركنية سنة ٦٦٠هـ، وبقي فيها حتى عيّن مدرساً للمدرسة الأشرفية سنة ٦٦٢هـ[٣]، ثم أضيفت إليه وظيفة

---

(١) المعدّل أو العدّل اصطلاح يلقب به من يثق به القاضي ويطمئن إلى شهادته فيعينه لمعاونته في أعماله ومنها تسجيل الأحكام أنظر:
- القَلْقَشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

(٢) أبو شامة: الذيل ص ١٩٩.

(٣) تولى هذا المنصب بعد وفاة القاضي عماد الدين عبد الكريم المعروف بابن الحرستاني شيخ دار الحديث في الأشرفية. وحضر عند أبي شامة أول يوم قاضي القضاة وأعيان البلد من المدرسين والمحدثين وغيرهم وكان مجلساً جليلاً عليه سكون وجلالة وإنصات من الحاضرين ووقار من المستمعين وقد أنشأ بعضهم في هذه المناسبة الأبيات التالية:

الاقراء بالتربة الأشرفية. واستمر يشغل هاتين الوظيفتين حتى توفي سنة ٦٦٥هـ.

من هذه الإشارات جميعها يمكن القطع بأن أبا شامة شغل منصب الأستاذية للمرة الأولى سنة ٦٦٠هـ. وهذه الوظيفة كانت تتيح لمتقلدها الإشراف على إدارة المدرسة، إشرافاً كاملاً يشمل الأوقاف المخصصة لها. والمتتبع لحياة العلماء في هذه الفترة التي شهدت نهضة علمية ميسرة يجد أن كثيراً منهم اعتمد اعتماداً كبيراً على هذه الأوقاف والمدارس في تنظيم حياته، مستفيداً من مواردها في فترة طلب العلم، ثم متقلداً وظيفة الأستاذية في هذه المدارس، أو قائماً بالإشراف على الأوقاف المخصّصة لها بعد اجتياز مرحلة الطلب. بل اننا نجد كثيراً من هؤلاء العلماء يجمعون بين التدريس والإشراف على عدد كبير من الأوقاف يديرونها ويدبّرون شؤونها، ووسيلة

- العلم والمعلوم قد أدركته
وسماعك البحر المحيط فحدث
وبعثت في دار الحديث بمعجز
وأبان له عنك افتتاح المبعث
مكثت به الألباب طائعة
والحسن من ضرب به لم تمكث
- أبو شامة: المذيّل ٢٣٠ - ٢٣١.

بعضهم إلى هذا التقرب من الأمراء الواقفين، أو من السلاطين الحاكمين.

كما يمكن القطع أن أبا شامة كان يشغل وظيفة صغيرة في شبابه، سنة ٦٣٥ هـ، عندما اختير واحداً من عدول دمشق، ثم أمّ الصلاة في المدرسة العادلية التي كان يقيم بها في دمشق مدة لا نستطيع تحديدها، كما لا نعرف تاريخ بدئها أو نهايتها، ويستثنى من هذه المدة الفترة التي انقطع فيها عن الإمامة، عندما خرج إلى بساتينه الخاصة يعمل فيها ويعتمد عليها في حياته.

هذا الغموض الذي يحيط بالجانب المادي من حياة أبي شامة لا يعني، في حال من الأحوال أنه كان شخصية مغمورة في الحياة الحكومية، كما لا يدل على نقص في كفاءته جعل رجال الدولة يصرفون النظر عن إسناد بعض المناصب الهامة إليه، بل إننا نجد في حديث أبو شامة عن بعض أساتذته الذين اعرضوا عن التزلف إلى ذوي السلطان ما يدل على أنه اتخذهم قدوة له ينهج نهجهم ويترسّم خطاهم. فمنذ صغره عندما كان يقرأ القرآن في جامع دمشق، كان أبو شامة ينظر إلى مشايخ العلم كالشيخ فخر الدين أبو منصور ابن عساكر. ويرى طريقه في فتاوى المسلمين وحاجة الناس إليه وسماع الحديث النبوي عليه، وهو يمر من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم،

إلى تحت قبة النسر لسماع الحديث، إلى المدرسة التقوية.[1] لالقاء دروس الفقه، ويرى إقبال الناس عليه وتردّدهم إليه، مع حسن سمته واقتصاده في لباسه، فيستحسن طريقته ويتمنى رتبته في العلم ونشره له وانتفاع الناس بفتاويه.

كما صحب أبو شامة أستاذه علم الدين السخاوي[2] ما يقرب من ثلاثين سنة بين سنتي ٦١٤ ـ ٦٤٣هـ؛ وقد كان السخاوي هذا «زاهداً في صحبة رجال السلطان» كما كان «متعففاً زاهداً مقتنعاً باليسير» وكان للناس «فيه اعتقاد عظيم.......... فكانوا يزدحمون في الجامع لأجل القراءة ولا يصح لواحد منهم نوبة إلّا بعد زمان». ومما يدل على زهده وتعففه خروجه مرة مع أبي شامة لزيارة المقابر. وفي هذه الزيارة لفت نظر أبي شامة إلى بيت كتب على قبر الفقيه ابن الشاغوري يقول:

---

(١) كانت من أجلّ مدارس دمشق أنشأها سنة ٥٧٤هـ الملك المظفر تقي الدين عمر شاهنشه بن أيوب ابن أخي صلاح الدين.
ـ أبو شامة: المذيل ٣٧ ـ النعيمي: الدارس في المدارس ٢١٦/١.

(٢) يذكر أبو شامة أنه استفاد من السخاوي، علّامة زمانه وشيخ عصره، علوماً جمة كالقراءات والتفسير وعلوم فنون العربية وأنه صحبه من شعبان سنة ٦١٤ هـ. وقد توفي السخاوي سنة ٦٤٣.
ـ أبو شامة: المذيّل ص ١٧٧.

مـاكنت تقرب سلطانـاً لتخـدمـه

لـكن غـنـيت بـسـلطان الـسـلاطـيـن

وتتلمذ أبو شامة كذلك على عز الدين بن عبد السلام [1] الذي اخرج من دمشق سنة ٦٣٩هـ لقوة شخصيته وخوف سلطانها منه، فذهب إلى مصر وأقام بها حتى توفي سنة ٦٦٠هـ وكان عز الدين بن عبد السلام هذا «شيخ المسلمين والإسلام وسلطان العلماء. . . . . . . لم ير من رآه مثله علماً وورعاً وقياماً في الحق، وشجاعة وسلاطة لسان» والسبب المباشر لإخراجه من دمشق أنه أسقط أسم الصالح إسماعيل، أميرها من الخطبة عندما استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا. وقد ساعد ابن عبد السلام في هذه الخطوة الشيخ جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية، وعندما وصل إلى مصر تنحى له العلماء عن أماكنهم، وتأدب معه الشيخ زكي الدين بن عبد العظيم المنذري وامتنع عن الافتاء من أجله وتقديراً له

---

(١) عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم بن محمد بن مهذب السلمي ولد بدمشق سنة ٥٧٨هـ وقدم إلى مصر وأقام بها زهاء عشرين سنة حيث تنحى له العلماء عن أماكنهم بل وامتنع معه الشيخ زكي الدين بن عبد العظيم المنذري عن الإفتاء من أجله مات في جمادى الأولى سنة ٦٦٠ ومشى الظاهر بيبرس في جنازته أنظر:

- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٥/٨٨

- عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر ٢٠٤ - ٢١٢.

وقال: ليس لها إلا عز الدين. وفي سنة ٦٦٠ هـ توفي ابن عبد السلام في مصر فخرج السلطان بيبرس في جنازته وحدّث خاصته قائلاً: «اليوم استقر ملكي لي، فلو أمر عز الدين الناس في شأني بما أراد لأطاعوه مبادرين».

طالت صحبة أبي شامة لهذين العالمين الجليلين، ولأمثالهما من أئمة الزاهدين فتأثر بهم واتخذهم قدوة، ومثلاً، فعزف عن المناصب الحكومية، وترفّع عن التكالب على أموال الأوقاف، وانصرف مدة، كما ألمحنا، إلى بساتينه الخاصة يفلحها بنفسه ويعتمد عليها وحدها في حياته حتى اغنى بيته وتمكن من إسعاد أهله وأقاربه المحتاجين وصان وجهه عن الناس واحسّ بالحرية والإستقلال، كما يقول في المذيل[1] وقد سجل شعوره هذا في قصيدة أوردها في المذيّل في مائة وعشرة أبيات وفيها يقول:

أيها العاذل الذي إن تحرى
قال خيراً ونال بالنصح اجرا
لا تلمني على الفلاحة واعلم
إنها من أحلّ أحب واثرى
وبها صنت ماء وجهي عن النا
س جميعاً وعشت في القوم حرا

(١) أبو شامة: المذيّل ٢٢٢ - ٢٢٦.

إذ بهـا صـار مـنـزلي ذا غـلال
مـع عيال من بعـد مـا كـان فقرا

وفي هذه القصيدة يوجه حديثه إلى طالب العلم منّدداً بتكالب العلماء على التزلف إلى ذوي السلطان. فيقول:

اتـخـذْ حـرفـة تـعـيْشْ بـهـا يـا
طـالـب الـعـلم، إن لـلعـلم ذكـرا
لا تـهنـه بـالإتـكـال عـلى الـوق
ـف، فيمضي الـزمـان ذلاً وعسـرا
إنـمـا تحـصـل الـوقـوف لـشـرّ
يـد ونـذل مـن الـعـلوم مُـبـرّا
أو لـمـن يـلزم الأكـابـر لا يـبْـ
ـرح في خـدمة لهم، ومـدح وإطرا
طـالـبـاً جـاههم مجيبـاً إلى كـل
أمـورٍ لـهـم، عـكـوفـاً مصـرّا
فـتـرى قـاضي القضـاة ومـن يـذ
كـر درسـاً يـرعـاه سـراً وجهـرا
قـاصـداً قـربـة فـيصـغي إلـيـه
فـاعـلاً مـا يـريـد نفعـاً وضـرا

وقدأطنب كتاب التراجم فى مدح صفات أبي شامة

الطيبة، من تواضع وأخلاق حميدة واطراح للتكلف وحرص على الإجتهاد في الأحكام المختلف فيها فلا يفتي إلّا بما يراه أقرب إلى الحق وإن كان خلاف مذهبه الشافعي تبعاً للأدلة. وجب للعزلة والإنفراد، عزوف عن التردد إلى أبواب أهل الدنيا متجنباً المزاحمة على المناصب لا يؤثر على العافية والكفاية شيئاً. ومن شعره في هذا الخصوص[1].

الثوب واللقمة والعافية
لقانع من عيشه كافية
وما يزد فالنفس ليست به
وإن تكن مملكة راضية

وله أيضاً:

أنا في عز القناعة
رافل في كل ساعة
رب اتممها بخير
في معافاة وطاعة

ولا نجد في مؤلفي التراجم من يشذ عن هذا الإجماع في تقدير شخصية أبي شامة وطيب أخلاقه إلّا قطب الدين اليونيني، الذي يتخذ موقفاً معارضاً، فيذكر أن أبا شامة كان

(١) أبو شامة: الذيّل ٢٠٢.

كثير البغض من العلماء والأكابر والصلحاء والطعن عليهم والتنقيص بهم، وذكر مساوىء الناس وثلب أعراضهم، ولم يكن بمثابة من لا يقال فيه فقدح الناس فيه وتكلموا في حقه، وكان عند نفسه عظيماً فسقط بذلك من أعين الناس.

وصدور هذا الطعن من معاصر لأبي شامة يحملنا على الوقوف عند قوله لنتبين وجه الصحة فيه، وهذا ما يقتضينا أن نحاول معرفة نوع الصلة التي كانت بين الرجلين. وفي هذا نجد أن أبا شامة كان شافعي المذهب، على حين كان اليونيني من قادة الحنابلة (و) ابناً لإمام من أئمتهم في بعلبك وهو الشيخ محمد الحنبلي اليونيني الذي توفي سنة ٦٥٧هـ. وقد ذكر أبو شامة نبأ وفاته في المذيل ضمن حوادث هذه السنة[١] وعلق عليها، مبيناً أن الإمام اليونيني ألّف كتاباً في الإسراء مليئاً بالخطأ الفاحش، فحمل هذا أبا شامة على تأليف كتاب خاص يفند به مزاعم اليونيني ويصحح اخطاءه وسمى كتابه هذا: «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي». ولم يكن الحنابلة عندئذٍ على علاقة طيبة بأئمة المذاهب الأخرى في الشام عامة ودمشق خاصة. حتى أننا نرى أبا شامة يمدح أستاذه زين الأمناء ابن عساكر بأنه «كان لا يمر قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأثموا

(١) أبو شامة: نفسه ١١٩.

بسببهم له» ويعلل هذا صراحة بالبغض العنيف الذي يكنه الحنابلة للشافعية ذلك البغض الذي يكفينا للتدليل عليه أن نذكر أن زكي الدين بن رواحة أنشأ مدرستين في دمشق وحلب، وجعل من شروطه للدراسة فيهما «ألا يدخلهما مسيحي ولا حنبلي» وهكذا نجد أن من المحتمل أن اليونيني تأثر في العبارات التي تحدث بها عن أبي شامة بعاملين أحدهما البغض التقليدي الذي شاع بين الحنابلة والشافعية. وكلاهما إمام من أئمة مذهبه، وثانيهما البغض الشخصي الذي أحس به اليونيني نحو أبي شامة الذي ألّف كتاباً خاصاً يعدد فيه اخطاء والده ويصححها[1].

ويبدو أن حياة أبي شامة في مجموعها، كانت سهلة مطمئنة، وأنه لم يعترضه من الصعوبات ما يعكر صفوها أو يخرج بها عن هدوئها واستقرارها باستثناء حادثتين أشار إليهما في تقريريه عن سنتي ٦٥٨ و ٦٦٥هـ. ففي سنة ٦٥٨هـ[2]، وهي سنة دخول التتار دمشق، استدعاه نائب التتار وأهانه،

---

(١) يذكر أبو شامة أن اليونيني صنّف أوراقاً فيها يتعلق باسراء النبي ﷺ ليلة المعراج وأخطأ فيه أنواعاً من الخطأ الفاحش. فصنّف أبو شامة كتاباً خاصاً يعدد فيه هذه الأخطاء بعنوان «الواضح الجلي في الرد على الحنبلي».
- أبو شامة: المذيّل ٢٠٧.

(٢) أبو شامة: المذيّل ص ٢١١.

وهدّده بضرب عنقه، فاضطر أبو شامة أن يوقع له بمبلغ كبير، حتى يطلق سراحه وقد هزم التتار بعد هذه الحادثة بعشرة أيام في موقعة عين جالوت، واعتبر أهل دمشق الهزيمة كرامة لأبي شامة وقيل في ذلك:

تفرق جمع الكفر لما تعرضوا
أبا شامة ظلماً وكدر ورده
أرادو به كيداً وما هيب علمه
فغار له الرحمن إذ هو عبده
فما كان بين الجور منه وكسرهم
لدى رمضان غير عشر نعدّه
فحاشى لمفتي الشام يهمل أمره
ويخفض ذو علم ويرفع ضده
له أسوة بالأنبياء وصالحي الـ
برية فيه ليس يخلف وعده
يعز علينا ما جرى غير أننا
نسر به حيناً فلا كان فقده

وحادثة أخرى كان لها على ما يظهر أثر هام في صحة أبي شامة. تلك هي أنه تعرض لهجوم اثنين عليه وهو في منزله، في جمادى الآخرة من سنة ٦٦٥هـ متظاهرين بأنهما قدما في طلب الفتيا، وبعد أن اطمأنا إلى انفرادهما به وإلى غيبة من قد

بحاول نجدته وانقاذه من اعتدائهما، انهالا عليه بالضرب المبرّح، ربما لاسباب مذهبية وتركاه بعد ذلك مريضاً مجهداً.

وقد عرض عليه بعض أصحابه أن يتقدم بالشكوى إلى ولاة الأمر فرفض قائلاً: قد فوضت أمري إلى الله، فما أغيرّ ما عقدته مع الله وهو يكفينا سبحانه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه»[1]. وقد نظم في هذه المناسبة الأبيات الثلاثة التالية:

قل لمن قال آلا تشتكي
ما قد جرى فهو عظيم جليل
يقيض الله تعالى لنا
من يأخذ الحق ويشفي الغليل
إذا توكلنا عليه كفى
فحسبنا الله ونعم الوكيل

وقد توفي أبو شامة بعد شهرين ونصف من هذا الحادث وذلك في التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٦٦٥هـ الموافق ١٣ حزيران سنة ١٢٦٨ دفن في مقبرته بالفراديس. وكان الذين قتلوه هم الذين جاءوه من قبل فضربوه ليموت فلم يمت[2].

---

(١) أبو شامة: نفسه ص ٢٤٠.

(٢) نجد ترجمة لأبي شامة، بالإضافة إلى تلك التي كتبها لنفسه، في

- تاج الدين تقي الدين السبكي: طبقات الشافعية ٥/ ٧٠.

- ابن كثير البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠ - ٢٥١.

٢ ـ مؤلفاته :

تقدم كتب التراجم أبا شامة بأنه شهاب الدين، الإمام العلامة ذو الفنون، الشافعي المقرىء النحوي، وتقول إنه أتقن الفقه وبرع في العربية كما أنه بلغ رتبة الإجتهاد حتى عجب بعضهم منه حيث قلّد الإمام الشافعي، ويزيد اخرون على هذا أنه كان «يكتب الخط المليح المتقن»، ويقول أخر «وله نظم متوسط وفيه كثرة».

ويدل هذا كله على تنوع ثقافة أبي شامة، وعلى مشاركته في كثير من الفنون والعلوم بقسط يضعه في صفوف العلماء المبرزين، وهو بهذه الثقافة المتنوعة لم يعدُ أن يكون صورة متكررة لرجال عصره من العلماء الذين اخذوا من كل علم بنصيب، وذلك تأثراً بالنهج العام الذي تميزت بـه الحياة العلمية في هذا العصر. إذ كانت النشاطات الفكرية والثقافية في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) والقرن الذي تلاه مرآة صادقة على الحضارة العربية الإسلامية، إذ تجلّت فيها كافة الخصائص والقسمات التي ميزت تلك الحضارة آنذاك هـذه الحضارة التي كـانت قد وصلت إلى اقصى نمو لها وتطور، وعندما بدأت تستقر لتجني ثمار إنجازاتها

= ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.
ـ دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩.

الثقافية فوجئت بهجوم اتباع دين آخر يهددون وجودها ذاته. وكان فشل الخلافة الفاطمية الشيعية في فهم حقيقة الحركة الصليبية من جهة. ثم إخفاق هذه الخلافة في جهودها العسكرية ضد الصليبيين من جهة أخرى من أهم عوامل بروز الجهود السنية على محور الموصل - حلب. ثم جاءت نهاية الخلافة الفاطمية في خضم الصراع الإسلامي الصليبي تجسيداً لانتصار المذهب السني على منافسه الشيعي وأسس صلاح الدين المدارس في بيت المقدس والشام والقاهرة والإسكندرية لتدعيم المذهب السني ومحاربة التشيع. ثم قرن ذلك بتقريب علماء السنة[1] الذين كانت عليهم مهمات أخرى هي شحن روح الحماسة في نفوس المسلمين للدفاع عن بلادهم ودينهم ضد الصليبيين. وتشكل تيار اجتماعي ثقافي مستمر ومتصاعد تبلور من خلال ابداعات ابناء هذا المجتمع في فنونه وأدابه، سواء منها الانتاج الراقي المكتوب أو ذلك التيار الشعبي المجهول المؤلف الذي يعبر عنه بالاداب والفنون الشعبية.

(١) ضمت حاشية السلطان صلاح الدين العديد من العلماء ومنهم القاضي الفاضل، القاضي بهاء الدين بن شداد والعماد الأصفهاني أنظر:
- أبو شامة: الروضتين ٢/٢١٧ - ٢١٨
- ابن شداد: النوادر السلطانية ٧ - ١٣.
- عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر ص ١٤٩ - ١٥١.

ومن أولئك العلماء السنّة خرج أرباب الأقلام الـذين تولوا الوظائف العليا في الدولة الأيوبية، التي عاش أبو شامة في ظلها، وخرج القضاة والمدرسون الذين كانوا يعقدون حلقات دروسهم في أروقة المدارس السنيـة التي انتشرت في كـل مكان. وغالباً ما كانت الدولة تقربهم بسبب نفوذهم الواسع على عامة الناس[1].

وكان صلاح الدين الأيوبي نفسه شديد الكلف بعلوم الدين، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفـواه أشهر العلماء، كما كان معنياً بإعادة المذهب السني، ولذلك قاوم أي محاولة تصور أنها يمكن أن تعوق حركته في هذا الإتجاه الذي كان يعتقد أنه طريق التعبئة المعنوية الـلازمة لضـرب الوجود الصليبي. وربما يمكن تفسير قتل السهر وردي بأمره وبيع كتب مكتبة القاهرة الفاطمية[2] على ضوء حماسة صلاح

---

(١) عن مكانة العلماء في العصر الأيوبي أنظر:
ـ عبد اللطيف حمزة: المرجع السابـق ص ١٥٠ وما بعدها
ـ محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي ٨٨ ـ ٩٠.

(٢) يذكر أبو شامة أنه خُصصّ يومان من كل أسبوع لبيع الكتب في القصر بأرخص الأثمان، وإن عددها أكثر من مائة ألف كتاب. «وكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً».
ـ أبو شامة: الروضتين ١/٢٦٨.

الدين الغامرة للمذهب السني، بيد أن ذلك لا ينفي أن هذين الإجرائين كانت لهما آثار بعيدة المدى في جنوح الحياة الفكرية والثقافية إلى المحافظة. فباستثناء الغزالي لم يشهد ذلك القرن مفكراً من الطراز المبدع الذي عرفته القرون السابقة في تاريخ الثقافة والفكر العربي الإسلامي، بل أن الغزالي نفسه كان دارساً للفلسفة واستخدم دراسته في هدم الفلسفة وكان الإتجاه العام للتيارات الفكرية يسير نحو تأمل ما انجزه السابقون ومحاولة شرحه وتبسيطه أو تجميعه. كما كان النشاط الثقافي موجهاً نحو الحفاظ على التراث الفكري المجيد أكثر منه نحو المشاركة في اثراء هذا التراث. وتحوّل التأليف إلى تجميع واجترار وأصبح البحث في تراث السلف الصالح من الفضائل الثقافية. لقد كانت الحضارة العربية الإسلامية في حال الدفاع عن النفس، وأراد أبناؤها لمّ تراثها وحفظه. وعلى الرغم من التدهور الثقافي العام إلاّ أن حركة التدوين التاريخي كانت مزدهرة بشكل لافت للنظر. ففي عصر أبي شامة وصلت الكتابة التاريخية إلى أرقى مستوى وصلت إليه في تاريخ الفكر العربي، وكان ذلك العصر بمثابة بانوراما حيّة تبين مدى التنوع والثراء الذي وصل إليه التدوين التاريخي. بيد أن هذا التوهج الأخير شابته ظاهرة لافتة للنظر وهي ظاهر «الذيول» أو التأليف استكمالاً لكتاب آخر مشهور.

وربما يكون الإتجاه المحافظ الذي ساد الحياة الفكرية وراء مثل هذه الظاهرة. وعلى أي حال عكست هذه الظاهرة جانباً هاماً من جوانب الروح المحافظة، والسمة الاجترارية للتأليف آنذاك. وانصرف الشعراء والأدباء والمفكرون الرسميون إلى محاولات حفظ التراث وجمعه وشرحه وتكراره. كما أصبح معظمهم من أبواق الدعاية والتبرير لتعبئة الناس حول قائد بعينه. أو للترويج لاتجاه أو لآخر في محاولات للإجابة عن تساؤلات كثيرة طرحها عامة الناس.

وأبو شامة، كان صورة في تأليفه لهذا العصر. وهو يمدنا بقائمة الكتب التي ألفها أو التي لم يستكمل تأليفها وتكملتها. ومن مؤلفاته المنشورة أو المخطوطة التي أوردها بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي الجزء السادس صفحات ١٤ ـ ١٧ التالية:

١ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: تاريخ السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين وقد نشر محمد حلمي أحمد الجزء الأول، القسم الأول (لجنة التأليف والترجمة والنشر) القاهرة سنة ١٩٥٦، والقسم الثاني (سلسلة تراثنا) القاهرة ١٩٦٢ بمراجعة محمد مصطفى زيادة كما نشرت دار الجيل بيروت كتاب الروضتين غير محقق دون تاريخ.

ونشره باربييه دي منيارد مع ترجمة فرنسية.

Abou Chamah: le livre de deux jardins ou histoire des deux règnes Celui de Nour Ed Din et celui de Salah Ed Din, Textes, et trad franc. P. A. C. Barbier de Meynard, Recueil des hist des crois, Hist. Paris 1898 – 1906.

واختصره خليل بن كيكلداي العلائي المتوفى سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م بعنوان عيون الروضتين، ومن هذا المختصر نسخة بخط المؤلف في المتحف البريطاني ثان ٥٥٤.

٢ - الذَّيل على الروضتين. عن السنوات ٥٩٠ - ٦٦٥ هـ / ١١٩٤ - ١٢٦٦م. وقد عني بنشره السيد عزت العطار الحسيني بدمشق سنة ١٩٤٧ على أساس النسخة الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية. كما نشرته دار الجيل ببيروت في طبعتين الأولى ١٩٤٧ والثانية ١٩٧٤م تحت عنوان تراجم رجال القرنين السادس والسابع «المعروف بالذيل على الروضتين» وتوجد مخطوطات له في برلين ٩٨١٣، ٩٨١٤ هافنيا ١٥٦، باريس أول ٥٨٥٢، المتحف البريطاني ثان ٥٥٥ - ٥٥٦، كوبرلي ١٠٨ ومنه صورة فوتوغرافية في القاهرة ثان ١٩١/٥ . ومنه مقتطفات في نشرة باربييه دي

ميناردِ لكتاب الروضتين الجزء الثاني صفحة ١٥١ وما بعدها.

٣ ـ المقاصد أو المنائح السنية في شرح القصائد النبوية: شرح القصيدة اللامية الشقراطسية لأبي محمد عبدالله بن أبي زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي والقصائد السبع لشيخه علي بن محمد السخاوي المتوفي سنة ٦٤٣ (١٢٤٥): القاهرة ثان ٣/٣٦٧.

«شرح سبع قصائد السخاوي في مدح النبي» ألّفه سنة ١٢٤٤/٦٤٢: باريس أول ١٦٢: ٣.

٤ ـ شرح البردة: ميونخ أول ٥٤٧، باريس أول ١٦٢٠: ٣.

٥ ـ قصيدة في أربعين بيتاً يشكو فيها مزاجه الحزين الحاد العكر، ويطلب النصح من شيخه علم الدين السخاوي: برلين ١٠٣ ـ ٧٧٧٢.

٦ ـ إبراز المعاني في شرح حرز المعاني أي في شرح القصيدة الشاطبية: برلين ٦٠٦، ٦٠٧ المتحف البريطاني أول ١٥٥٨، غاريت ١٢٠٠، فاتح ٤٦، ٥٦. باتنه ١/١١: ٨٧.

٧ ـ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز: الأسكوريال ثان ١٤٣١، لاله لي ٣٦٢٥.

٨ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: منه جزء في برلين ٩٧٨٢، وباريس أول ٢١٣٧.

٩ ـ مختصر كتاب المؤمَّل في الرد إلى الأمر الأول: رامبور أول ٣٦١: ٢٧٣. وهو في مجموعة الرسائل التي نشرها صبري الكردي بالقاهرة سنة ١٣٢٨ ص ٣ ـ ٤٤. ويهاجم فيه على طريقة الظاهرية «المذهب» و «التقليد».

١٠ ـ الباعث إلى إنكار البدع والحوادث: بنكيبور ٢١٥، ٣٨٠، باتنه ١/ ٤٠، ٤٠٨، الإسكندرية مواعظ ٧. طبع بالقاهرة سنة ١٣١.

١١ ـ الممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب: دمشق العمومية ٧٢، ٧(حيث يسمى المؤلف: شهاب الدين أبا محمود القدسي الشافعي وقد يكون غير أبي شامة).

١٢ ـ كتاب البسملة: دمشق العمومية ٥٢: ٤١٥. ومنه مختصر في الفاتيكان ثالث ١٣٨٤: ٥.

١٣ ـ كتاب السواك وما أشبه ذلك: الفاتيكان ثالث ١٣٨٤: ٦.

وبالعودة إلى المذيَّل حيث ترجم أبو شامة سيرة حياته. نراه يذكر كتباً أخرى لم يذكرها بروكلمان إلى جانب تلك التي ذكرها هذا الأخير، ولعلها ضاعت.

وللمقارنة نورد ما ذكره أبو شامة عن أسماء هذه المصنفات[1]:

وجمع وألّف وهذّب وصنّف في فنون العلوم النافعة كتباً كثيرة ومصنفات جليلة مختصرة ومطوّلة تم أكثرها وسمعها ووقفها وكثرت النسخ بها. فأول ما أظهر من مصنفاته شرح القصائد النبوية مجلد. ومنها: شرح قصيدة الشيخ الشاطبي رحمه الله الذي سماه ابراز المعاني من حرز الأماني، وهما شرحان أصغر وأكبر، والأكبر إلى الآن لم يتم، والأصغر مجلدان».

«ومنها: اختصار لتاريخ دمشق وهما أيضاً أكبر وأصغر وكلاهما تام، فالأكبر بخطه في خمسة عشر مجلداً والأصغر في خمس مجلدات. ومنها كتاب الروضتين في أخبار الدولتين في مجلدين ومختصر في مجلدة صغيرة. ومنها: الكتاب المرقوم في جملة العلوم يجمع عدة مصنفات في مجلدين، الأول فيه خطبة العلم الكبرى التي سماها خطبة الكتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول. وكتاب نور المسرى في تفسير آية الإسراء وشرح الحديث المقتفى في مبعث النبي المصطفى. وضوء

(١) أبو شامة: المذيّل ص ٤٠.

الساري أي رؤية معرفة الباري. والمحقق من علم الأصول فيما يتعلق بأفعال الرسول. وكتاب البسملة. والباعث على إنكار البدع والحوادث. وكتاب السواك. وما أشبه ذلك. ومختصر كتاب البسملة وغير ذلك.

«ومنها: كشف حال بني عبيد. والواضح الجلي في الرد على الحنبلي، وإقامة الدليل الناسخ لجزء الفاسخ. والأصول من الأصول. ومفردات القراءة. وشيوخ الحافظ البيهقي. ومقدمة في النحو. والألفاظ المعربة. والقصيدة الدامغة. وقصيدتان في منازل طريق الحج ونظم مفصل الزمخشري. ونظم العروض والقوافي. ونظم شيء من متشابه القرآن. وشرح عروس السمر».

«وابتدأ كتباً كثيرة لم يتفق إلى الآن إتمامها ونحن في سنة تسع وخمسين وستمائة التي تعقبها سنة ستين فيها: كتاب جامع أخبار مكة والمدينة وبيت المقدس شرفهن الله تعالى. ومختصر تاريخ بغداد، وتقييد الأسماء المشكلة. ورفع النزاع بالرد على الاتباع. والمذهب في علم المذهب. ونية الصيام وما في يوم الشك من الكلام. وشرح نظام المفصل. والاعلام

بمعنى الكلمة والكلام. وشرح لباب التهذيب والأرجوزة في الفقه، وذكر من ركب الحمار. ومشكلات الآيات. ومشكلات الأخبار، وكتاب القيامة. وشرح أحاديث الوسيط، وتعاليق كثيرة في فنون مختلفة من غير ترتيب على طريقة التذكرة لأبي علي الفارسي. وأمالي ثعلب. وأمالي الزجاجي. ونحو كتاب المجالسة، واختصار جملة من الدواوين.

«وقد نظم أحد الفضلاء بعض هذه المصنفات في أبيات كتبها له (أي لأبي شامة)[1] فقال:

هذا الشهاب الثاقب الفهم الذي
قد فاق في بحر العلوم وشطّهِ
أكرم بتحقيق واتقان وتصـ
ـنيف له وبراعة في ضبطه
وعناية من ربه فيما يحاو
له به فأحله في وسطه
فكلامه في الفقه يشبه ما تقد
م من كلام الشافعي وسبطه

(١) أبو شامة: المذيّل ص ٤٠.

يبني على نص الكتـاب وسنة

المصـطفى في رفعـه أو حـطه

ومذاهب العلماء يلحظها فيفتي

بـالمرجـح عنـده من قسـطه

ويفسـر القـرآن والأخبـار عن

حـذف بمفهوم الكـلام وربطه

وبنص أسماء الورى وحـديثهم

ووفـاتهم فكـأنهم من رهـطه

شرح الصدور بشرحه لقصائد

نبـويـة في قبضـه أو بسـطه

والشـاطبيـة جـولـوا أفكـاركم

فما شرحها إن كنتم من شرطـه

وله كتاب الروضتين وهذب التا

ريخ مختصـراً لـه من شحـطه

وكتـابـه المـرقـوم فيـه مصنفـا

ت في علوم جـازها في مـرطه

منهـا المحقق والسواك وبـاعث

مـع مبعث أحسن بـه وبقمـطه

والضـوء والإسراء وبسملة ومـر

شدهـا الذي أحيا بحسن محطه

ولنظمه في النحو والأوزان والـ

أحكام لم يك ما مضى من سمطه

وقد ابتدا كتباً فأن أبقه من

قوّاه أكملها بجودة سفطه

رفع النزاع ومشكل الـ

آيات والأخبار مما شده في قمطه

أرجو له عفو الإله فأنه

ما زال يطلب عفوه في خطه

الفصل الثاني

عصر أبي شامة وبيئته

١ ـ أحوال العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية . ٠

يجد الباحث في تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية، لزاماً عليه، أن يحيط بأحوال العالم الإسلامي بشكل عام، وأحوال الخلافتين العباسية والفاطمية بشكل خاص، ليتسنى له فهم الظروف التي ساهمت في إبراز آل زنكي وآل أيوب على مسرح الأحداث السياسية فهماً صحيحاً فبعد فترات الزهو والإنتصار التي عرفها العالم الإسلامي، بدأ الوهن يدب في أوصاله منذ القرن الحادي عشر الميلادي. ففي جناحه الشرقي خلافتان احداهما عباسية سنية في بغداد، والأخرى فاطمية شيعية في القاهرة، وولاء المسلمين موزّع بينهما. وقد انهكتهما مشاكلهما الداخلية بحيث باتتا عاجزتين عن حماية حدودهما، وحدّ أطماع الطامعين فيها من قوى محلية وخارجية تمثلت بالصليبيين والبيزنطيين. ولم يكن الغرب الإسلامي بأفضل حال، فقد كان هو أيضاً يعاني من الإنهيار بسبب تفككه إلى

دويلات عرفت بدول الطوائف في الأندلس، الأمر الذي اطمع الإربان فيها وقوّى أملهم في طرد المسلمين نهائياً من الأندلس، وبدا كأن معجزة فقط هي التي تنقذ العالم الإسلامي من إنهيار محقق، وقد تحققت هذه المعجزة فعلاً على أيدي المرابطين في المغرب الإسلامي والسلاجقة الأتراك في المشرق ويهمنا هنا الحديث عن السلاجقة، فعن طريقهم ظهر الأتابكة من آل زنكي، وعن طريق هؤلاء ظهر الأيوبيون فيما بعد[1].

والسلاجقة[2] مجموعة من قبائل الغز التركية تنسب إلى سلجوق بن دقاق، الذي جمع شملها ووحد كلمتها، وبدأت به أهميتها، منذ أن انتقلت معه من سهوب تركستان، موطنها

(1) للمؤرخ ابن تغرى بردي تحليل سياسي لمكوّنات الدولة الزنكية التي قامت في الموصل وحلب في النصف الأول من القرن الثاني عشر، وللدولة الأيوبية، إذ قال ما نصه: «وبنو زنكي هم أوسط الدول فأن أول من ملك مع الخلفاء، وتلقّب بالسلطان والألقاب العظيمة بنو بويه، ثم أنشأ بنو بوية بني سلجوق، وأنشأ بنو سلجوق بني أرتق وآق سنقر جد بني زنكي. ثم أنشأ بنو زنكي بني أيوب».

ـ ابن تغرى بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٢٠٩.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول (القسم الأول) ص ٣٠ وما بعدها.

ـ العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق.

ENCY. de l'isl (Autseiljukide) T. 4 P. 216

الأصلي، إلى بلاد ما وراء النهر، حيث اعتنقت الديانة الإسلامية على المذهب السني. واستقرت بنواحي سمرقند وبخارى أواخر القرن الرابع الهجري وتعاونت مع السامانيين في نشر الإسلام بين الأتراك الوثنيين وحماية الثغور الإسلامية، وما لبث جموعهم أن اتجهت غرباً نحو خراسان بقيادة طغرل بك[1]، حفيد سلجوق، حيث استولوا على مرو ونيسابور وبلخ وطبرستان وخوارزم سنة ١٠٣٧م. كما استولوا على همذان والدنيور، والري، واصبهان التي اتخذها طغرل بك عاصمة له بين سنتي ٤٣٣ ـ ٤٣٧هـ. وقد حرصوا خلال زحفهم على إظهار تمسكهم بالمذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي دون هوادة.

وفي الوقت الذي كانت فيه جموع السلاجقة تنثال غرباً، كانت الخلافة العباسية تعاني الكثير من سيطرة الأسرة البويهية الشيعية[2] على الخلفاء العباسيين بحيث باتت سلطة

---

(١) عن طغرل بك بالتفصيل أنظر.
ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٤٣٨ وما بعدها.

(٢) تنسب هذه الأسرة إلى أبي شجاع بن بويه، وهي من أصل فارسي، وكان أول ظهورها بين قبائل الديلم في الجنوب الغربي من بحر قزوين، تأخرت في إسلامها إلى أن اكتسبتها الدعوة الشيعية في أوائل القرن الثالث الهجري التاسع ميلادي. كوّن البويهيون دويلات قوية في إيران ونواحيها ووصل بهم أحمد بن بويه إلى بغداد ٣٣٤هـ (٩٤٥م) حيث تلقب بمعز الدولة فعزل =

الخليفة العباسي اسمية، ليس له من مظاهرها إلّا الخطبة والسكّة وتعيين القضاة وخطباء المساجد بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لأنفسهم لقب ملك أو شاهنشاه، بدلاً من لقب أمير الأمراء الذي كان سائداً في عصر النفوذ التركي السابق، كما قرنت أسماؤهم باسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة[1].

وعانت الخلافة العباسية، إضافة إلى النفوذ البويهي، من مؤامرات الدولة الفاطمية، مما حمل الخليفة العباسي القائم بأمر الله على التطلع إلى الإستعانة بطغرل بك والسلاجقة للتخلص من البويهيين الذين كانوا قد طردوه من منصب الخلافة، فأسرع طغرل لك بتلبية ندائه ودخل بغداد سنة ٤٤٧ (١٠٥٥م) وأعاده القائم إلى سدة الخلافة بعد أن قضى على دولة الملك الرحيم أخر الملوك البويهيين. وبذلك أصبح السلاجقة السنيون أصحاب السيطرة في بغداد، حيث اتخذ

= الخليفة المستكفي وولى بدله المطيع بالله. وكان بنو بويه أكثر استبداداً بالخلفاء العباسيين من القواد الترك السابقين.

- ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٣٠ وما بعدها
- ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٩٧ - ٩٩.
- المقريزي: السلوك ١/ القسم الأول ص ٢٣ وما بعدها
- ENCY. de l'Isl: (Ar tbûyûdes) F. 1 P. 827 - 828.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ١٤٢.

طغرل بك لقب سلطان ونقشه على العملة الإسلامية لأول مرة[1]. وهذا اللقب الذي يعني القوة والنفوذ، كان يطلق على الخلفاء وحدهم.

وكان رد الخلافة الفاطمية على دخول السلاجقة بغداد وقضائهم على البويهيين سريعاً إذا شجعت وأيّدت ثورة القائد التركي البساسيري بالمال والسلاح، ممّا مكّنه من التغلب على جيوش الخليفة العباسي في سنجار سنة ٤٤٩. ثم أخذ ينتظر فرصة مناسبة لدخول بغداد نفسها، فانتهز خروج طغرل بك من بغداد إلى شمال العراق ليخضع تمرداً قام به أخوه إبراهيم وهاجم بغداد واستولى عليها، وأجبر الخليفة القائم على إصدار عهد عنه يعترف فيه بعدم احقية بني العباس في الخلافة مع وجود الفاطميين أبناء فاطمة الزهراء. وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر على منابر بغداد، وأرسلت إليه عمامة الخليفة وعرشه. إلاّ أن ثورة البساسيري لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما عاد طغرل بك ليقضي على البساسيري وليعيد الخليفة القائم[2]. وتوّج انتصاره هذا بالزواج من ابنة الخليفة

---

(1) ENCY. de l'isl: (Art SÛltan) T. 4 p. 368. -

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٢٠١١

- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٨٧ ـ ٨٩.

القائم عام ٤٥٤هـ. لكن العمر لم يطل به بعد هذا الزواج فما لبث أن توفي في العام التالي ٤٤٥ (١٠٦٣) وقد جاوز السبعين.

وولي الحكم بعد طغرل بك، ابن أخيه السلطان عضد الدين ألب ارسلان[1] فحمل لواء الجهاد ضد البيزنطيين والشيعة على السواء طيلة فترة حكمه التي دامت عشرة أعوام (١٠٦٣ - ١٠٧٣م). وبسط سيطرته على حلب سنة ١٠٧٠م وكانت معقلاً للشيعة، ومنها أرسل قائده اتسز الخوارزمي إلى فلسطين وكانت تابعة للفاطميين، ففتح الرملة والقدس وما جاورها. ثم قصد دمشق وحاصرها وخرّب ضواحيها، وقطع الامدادات عنها، ولكنه فشل في دخولها.

ومن حلب اتجه ألب أرسلان لمقابلة الأمبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينيس الذي توغل في الأراضي الإسلامية حتى بلغ ملاذكرد التي دارت عندها معركة هائلة كتب النصر فيها لألب أرسلان وأسر الأمبراطور البيزنطي سنة ٤٦٢ (١٠٧١م)[2].

---

(١) عن ألب أرسلان بالتفصيل.

- ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/٤٢ وما بعدها

- ENCY. de l'isl: (Art Alp Arslân) T. I P. 368.

(٢) أهمية معركة ملاذكرد (مانزكرت) والانتصار على البيزنطيين، أن =

وتمهدت الطريق بهذا النصر لألب أرسلان إلى ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى. فوجه إليها ابن عمه سليمان قتلمش فأقام فيها دولة سلاجقة الروم. ولم يعش ألب أرسلان بعد نصره هذا طويلاً، إذ قتل على يد أحد أتباعه أثناء حروبه في بلاد ما وراء النهر عام ١٠٧٣م. وكان قد أوصى بالملك من بعده لولده ملكشاه[1].

وفي عهد ملكشاه، استطاع القائد اتسز الإستيلاء على دمشق عام ٤٦٨هـ[2] وما لبث ملكشاه أن عين أخاه تتش ملكاً على بلاد الشام وجعل الحكم وراثياً في اسرته، وبذلك قامت في دمشق دولة سلاجقة الشام التي وقفت في وجه أي تقدم فاطمي من مصر بإتجاه الشام.

= السلاجقة فتحوا أبواب آسيا الصغرى أمام هجرات الترك. وعنها بالتفصيل أنظر:
- عماد الدين الأصفهاني: دولة آل سلجوق ص ٣٥ وما بعدها
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٩٩.
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٨٥
- أومان: الإمبراطورية البيزنطية ١٩٥ - ١٩٩.
- ENCY de l'isl: (Art Mantzkert) Γ 2 P. 214.

(١) عن ملكشاه بالتفصيل:
- ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢ / ٥٨٦ وما بعدها.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١١٣.

وجاء وفاة ملكشاه، آخر السلاطين السلاجقة العظام عام ٤٨٥ (١٠٩٢م) إيذاناً بتفكك إمبراطورية السلاجقة، فقد خلف من الأولاد أربعة هم: بركياروق، ومحمود، ومحمد، وسنجر[١]. وقد انقسمت دولته فيما بينهم. فتنافسوا، ومن بعدهم أولادهم، على السيطرة على الخليفة العباسي وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لنفسه لقب السلطان. كما تنافس ابنا تتش، رضوان ودقاق في الشام[٢]. وأعمامه وأبناءهم في ولايات المشرق[٣].

ولعل أبرز مظهر لانحلال دولة السلاجقة، إضافة إلى التفكك والتناصر الأسري، هو استقلال عدد من كبار قادة السلاجقة ممن اصطلح على تسميتهم بالأتابكة، بولاياتهم، والأتابكة هي جمع لكلمة أتابك التركية المؤلفة من مقطعين: «أتا» بمعنى أب، و «بك» بمعنى السيد الذي يربي أولاد الملوك[٤]. ثم أصبح لقباً تشريفياً يمنح لكبار القادة بمعنى

(١) عماد الدين الأصفهاني: دولة آل سلجوق ص ٧٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٤٨/٨
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٥٥/٥.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ١٠٣/٨ ـ ١١٣.
(٤) كان يتسمى به من يتولى تربية أبناء السلاطين السلاجقة وأول من اتخذ هذا اللقب نظام الملك.
ـ القلقشندي: صبح الأعشى ١٨/٤
ـ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ١٢٢ وما بعدها.

قائد الجيوش ونائب السلطنة. وقد أطلقت على الدول التي أسسوها الأتابكيات وهي كثيرة عديدة، وبيوتها شتى لا تنتسب إلى نسب واحد. ولكن مما يجمعها هو صفة المملوكية والإتصال بالبيت السلجوقي والنظام الإقطاعي الإسلامي. وأهم هذه الأتابكيات أتابكية الموصل التي اسسها عماد الدين زنكي. وعن طريق آل زنكي ظهر الأيوبيون. ولعب هؤلاء وأولئك أدوارهم على مسرح الحوادث السياسية في الشرق الأدنى الإسلامي.

ولم تكن الخلافة الفاطمية في مصر[1]، أسعد حالاً في هذه الفترة من الخلافة العباسية التي كانت في هذه الفترة في أشد حالات الضعف. وقد كان أول ظهورها بالمغرب على يد عبيد الله الذي أعلن الخلافة، وتلقب بلقب المهدي، وتسمى بأمير المؤمنين سنة ٢٩٧ (٩٠٩م). وبعد أن استولت على مصر والشام ومعظم بلاد جزيرة العرب أخذ الضعف يدب في أوصالها، نتيجة لاستبداد الوزراء، وهو نفس السبب الذي تسبّب في ضعف الخلافة العباسية حين استبد بها أمراء الأمراء، ومن بعدهم ملوك بني بويه، ثم سلاطين السلاجقة.

(١) عن أصل الفاطميين ودعوتهم بالتفصيل أنظر.
- المقريزي: المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والآثار ٢/ ١٦٢ وما بعدها.
- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي ص ١٨٥ وما بعدها.

وقد كان الخلفاء الفاطميون أثناء إقامتهم بالمغرب، وفي أوائل حكمهم في مصر، يعتمدون على أنفسهم في تدبير الأمور، وإن استخدموا في مصر الكاتب أو المدبّر أو الوسيط أو السفير، وهي تسميات تدل على الذي يتصرف برأي الخليفة دون أن يبلغ مرتبة الوزير، ولما اتخذوا الوزراء منذ عهد الخليفة العزيز بالله، كان هؤلاء ممن عرفوا بوزراء القلم أو وزراء التنفيذ[1].

واعتباراً من النصف الثاني من عهد الخليفة المستنصر بالله، الذي تميزت فترة حكمه الطويلة بالمجاعات بسبب قصور النيل وما تلاه من قحط شديد استمر سبع سنوات، كثرت الفتن والقلاقل، ففقد الخليفة ووزراؤه كل سلطة في البلاد بحيث كان هؤلاء الوزراء يسقطون بسرعة بحيث عيّن في مدى أربع سنين عشرون وزيراً منهم[2].

ولما أضحى الخليفة المستنصر عاجزاً على قمع الفتن. وتصريف أمور الدولة بنفسه، التجأ إلى واليه على عكة بالشام، بدر الجمالي، الأرمني الأصلي، فطلب منه القدوم إلى مصر

(١) عن هذا المنصب أنظر.
- الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٢٥ وما بعدها
- القلقشندي: صبح الأعشى ٤٤٩/٥.
(٢) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين، الجزء الأول فصل الوزارة.

لتنظيم أمورها وإخماد ما نشب فيها من فتن، ورحب بدر الجمالي بذلك ودخل مصر في جيش كبير من الأرمن عام ٤٦٦ هـ وقبض على زمام الأمور بيد من حديد. فخلع عليه الخليفة المستنصر خلعة الوزارة إلى جانب تفويضه إمرة الجيوش. وبذلك أصبحت سلطته تمتد إلى كل أمر من أمور الدولة فهو أمير الجيوش، المسيطر على الجيش وكافل قضاة المسلمين، المسيطر على السلطة القضائية، وهادي دعاة المؤمنين، أي المشرف على الدعوة الفاطمية[١]. وقد حكم بدر حكماً مطلقاً إلى وقت وفاته سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) حيث كان المستنصر معه كالمحجور عليه[٢].

وبعد بدر الجمالي توالت سلسلة من وزراء التفويض أولهم الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان له من القوة ما حمله على إيصال المستعلي، الابن الأصغر للمستنصر، لمركز الخلافة رغم أحقية أخيه نزار بها. وما لبث أن تخلص منه باغتياله بالسم عام ١١٠١م وأحل في مركز الخلافة المنصور بن المستعلي وكان لا يزال طفلاً في الخامسة من عمره ولقّبه بالآمر بأحكام الله، وحجر عليه ولم يسمح له

---

(١) المقريزي: الخطط والآثار ٢/٣٠٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/٢٣.

بالظهور إلّا مرتين في السنة، . ولكن الأمر بعد أن بلغ رشده حاول أن يسترد نفوذه الضائع فتخلص من وزيره بعد أن دسّ السم له فقتله عام ١١٢١م. وشغل هذ المنصب بعد الأفضل المأمون البطائحي الذي حاول أن يسير على خطى سلفه من حيث الإستبداد بالخليفة، الأمر الذي اضطر الخليفة الآمر أن يدس له أحد مماليكه فقتله عام ٥١٩ ـ ١١٢٥م.

وفي عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) قتل الآمر على يد أحد أتباع عمه نزار، الذين كانوا يعتبرونه، وأباه من قبله، غاصبين للحكم[١]. ولمّا لم يترك الخليفة الآمر وريثاً، فقد انتقلت الخلافة إلى أحد أقربائه ويدعى عبد المجيد، الذي تلقب بالحافظ لدين الله. وفي عهده استبد بالسلطنة الوزير الأكمل بن الأفضل الذي قبض على الخليفة وسجنه واستولى على ما في قصره من أموال وتحف. ولما لبث الأكمل أن قتل عام ٥٢٦هـ وأخرج الحافظ من سجنه. وقد اعتبر هذا اليوم يوم عيد يحتفل به كل عام وسمي عيد النصر[٢]. وبعد وفاة الحافظ عام ٥٤٤هـ ـ ١١٤٦م اشتد التنافس بين كبار موظفي الدولة على منصب الوزارة، وساعدهم على ذلك صغر سن الخلفاء الذين

---

(١) ابن تغري بردي: نفس المصدر ١٨٤/٥ ـ ١٨٥.

(٢) المقريزي: الخطط ١٧٢/٢

ـ عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ١٢٩/٢ ـ ١٣٠.

توالوا على الخلافة بعد الحافظ وهم على التوالي: الظافر والفائز والعاضد وتوالى على منصب الوزارة في هذه الفترة الأخيرة من حياة الدولة الفاطمية رضوان بن ولخشي والي الغربية والعادل بن السلار والي البحيرة، وطلائع بن رزيك والي الأشمونين وشاور والي قوص، وأبو الأشبال ضرغام الذي تولى الوزارة لآخر الخلفاء الفاطميين العاضد بعد أن هزم شاور الذي هرب إلى الشام ليستنجد بالزنكيين.

يتضح لنا، من هذه العجالة أن الخلافتين العباسية والفاطمية لم تكونا على حال تحسدان عليه، وشغلتهما مشاكلهما الداخلية عن مقاومة خصم مشترك لكلتيهما وللإسلام وتمثل هذا الخصم بالحملات الصليبية التي استهدفت ظاهرياً استخلاص الأماكن المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين وحماية الحجاج الوافدين من أوروبا، بشكل خاص، مما كانوا يلاقونه من عراقيل ومصاعب واضطهاد من جانب المسلمين، ولما كان العصر عصر العاطفة الدينية المشبوبة فقد اتخذ القائمون على تلك الحملات من الدين ستاراً يخفون وراءه مطامعهم وأهدافهم الحقيقية ليجتذبوا أكبر عدد من المشاركين بهذه الحملات. والواقع أنه تجمعت من الأسباب الدينية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية ما ينبغي أن يأخذه الباحث المنصف بعين الاعتبار وهو يدرس تاريخ هذه

الفترة[1]. وإذا كانت قلة من المشاركين بهذه الحملات قد حملت شارة الصليب لدوافع دينية. فقد كان عدد من زعماء هذه الحملات قد قصدوا من اشتراكهم بها أن يفتتحوا أراضي جديدة لهم يرفعون عليها أعلامهم وتدين لهم بالطاعة. كما قصدت المدن التجارية في أوروبا مثل البندقية وجنوا وبرشلونه وبيزا وفلورنسا أن تجني الأرباح الهائلة من احتكار التجارة بين الشرق والغرب، والسيطرة على طرق التجارة التي تمر عبر الوطن العربي. والقضاء على البحرية الاسلامية التجارية، لذا فانها موّلت هذه الحملات وساعدت في نقلها على متن سفنها إلى ميادين القتال، متخذة من هذه الحرب فرصة لتنشيط تجارتها. لقد كان الشرق منجم ذهب هرع لينهبه الأفاقون والمفلسون واللصوص والباعة والخدم والرهبان والرقيق يسيطر عليهم جميعاً حمى الخوف على الحياة والاختيار بين الاثراء

(١) عن فكرة الحروب الصليبية من منظور ايديولوجي وتاريخي والظروف والدوافع الدينية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية في الغرب الاوروبي والشرق المسلم.
- باركر، أرنست: الحروب الصليبية ١٤ ـ ١٤
- رنسهان، ستيفن: الحروب الصليبية ١/ ٥ وما بعدها.
- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروف الصليبية الفصلان الأول والثاني.
- زكي النقاش: العلاقات الإجتماعية والثقافية والأقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية (منشورات دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨) ١٠٧ ـ ١٣٠.

والشحاذة على حد تعبير أحد المؤرخين. لقد كانت الحملات الصليبية في واقع الأمر استعماراً سياسياً واقتصادياً لهذه المنطقة من العالم.

وإذا كان الصليبيون قد نجحوا جزئياً في تحقيق أهدافهم واستطاعوا إقامة مملكة في القدس وإمارات ثلاث في الرها وأنطاكية وطرابلس، فان نجاحهم هذا لا يُعزى إلى وفرة عددهم، وإلى سيل الامدادات الذي لم ينقطع من الغرب الأوروبي بتشجيع ودعم من البابوية في روما، ومن الإمبراطورية البيزنطية فحسب، بل يعود أساساً إلى تفرق كلمة المسلمين وضعف الخلافتين الفاطمية والعباسية مع العداء المذهبي الذي دمغ بطابعه تصرفات وعلاقات كلتا الخلافتين الواحدة بالأخرى، فأفاد الصليبيون من هذا الواقع ووظفوه لصالحهم.

٢ ـ المواجهة الصليبية ـ العربية الإسلامية.

ليس بمقدورنا في هذا الدراسة أن نقدم تقريراً مفصلاً لسير الأحداث العسكرية والسياسية ولكننا نود أن نشير إلى أن عداوة مريرة نشأت بين الأمم التي تدين بالمسيحية والإسلام. منذ أن أخذ المسلمون يمدون نفوذهم نحو البحر المتوسط، بعد أن أجبروا البيزنطيين على التراجع إلى أقصى بلادهم في

آسيا الصغرى[1] وسيطروا في عهد الخلفاء الراشدين على أملاكهم في سوريا والجزيرة ومصر وأرمينية وقبرص ورودس، أي على معظم شرق البحر المتوسط كما سيطروا في عهد الخلافة الأموية على المغرب والأندلس وجزر البيار وسردينية وكريت في غرب المتوسط، ولما جاءت الدولة الأغلبية، في شمال أفريقيا، استولت على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ثم على مالطة ٢٢١هـ/٨٣٥م وفتح المسلمون كالبريا جنوب إيطاليا ووصلوا إلى روما سنة ٢٣١هـ/٨٤١م مقر البابا التي دخلوها وأحرقوها ونهبوا كنائسها، واضطر البابا ليون الرابع أن يختبىء. ثم لما أسس الفاطميون خلافتهم في شمال أفريقيا، بعد قضائهم على الأغالبة، استولوا على صقلية سنة ٣٣٣هـ/٩١٥م وأخذوا يغزون أيضاً في كالبريا (قلّورية كما سماها العرب) وهاجموا لمبارديا، وفتحوا مدينة جنوة سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م. وهاجموا جنوب شرق فرنسا، كما غزوا سواحل بلاد الروم[2].

وكان من الطبيعي والمنتظر أن تستهدف الأمم النصرانية، بعد أن اشتد ساعدها، الانتقام من المسلمين. ولم

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/٣٢٨.

(٢) عن الفتوحات الإسلامية بالإضافة إلى المصادر الإسلامية الكلاسيكية أنظر:
- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية بجزئيه.

يكن متوقعاً أن يأتي الخطر من جانب البيزنطيين الذين تلقوا ضربات قاسية من المسلمين، منذ انسياحهم في حركة الفتوح، باستيلائهم على أملاكهم في حوض البحر المتوسط، ومن ناحية أخرى بسبب أن حدودها في أوروبا كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية وبخاصة البلغار[1]. ولما قويت بيزنطة، بضعف الخلافة العباسية، وبعد تسوية علاقاتها بالبلغار، مدّت نفوذها في عهد الأسرة المقدونية إلى الإمارات الإسلامية في شمال الشام وفي اقليم الجزيرة، كما استعادت رودس وقبرص وكريت. وجعلتها مراكز للإغارة على سواحل المسلمين[2]. وفي أوائل عهد الفاطميين، بعد أن نقلوا خلافتهم من المغرب إلى مصر، وصل البيزنطيون إلى قرب القدس مرار[3] إلاّ أن الفاطميين أوقفوا تقدمهم وما لبثوا أن عقدوا الصلح معهم. دون أن يسترجعوا الجزر التي فقدوها ولما جاء السلاجقة إلى العراق، زادوا من ضعف البيزنطيين، بخاصة بعد أن تقدموا باتجاه آسية الصغرى التي فتحوا أبوابها لهجرة قبائلهم فتكونت إمارة سلجوقية قوية على يد سليمان بن

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ٢/٢٧٢ وما بعدها.
(٢) ياقوت: نفس المصدر ٤/٣٠٠ والمقصود هنا سواحل رودس.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/١١٨.

قتلمش سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، اتخذت قونية عاصمة لها[١] وبدأت تتوسع مقتطعة الأراضي البيزنطية جزءاً جزءاً. كما اضطروا البيزنطيين أن يدفعوا لها الجزية[٢].

ولكن الخطر الحقيقي جاء من أهل أوروبا الذين عرفهم العرب باسم الفرنجة أو الأفرنج[٣]، أو الفرنج، وبخاصة من العناصر النورماندية الشمالية المخاطرة الذين غزوا انكلترا في القرن الثاني الميلادي وفيها تحولوا إلى النصرانية، ثم انتقلوا إلى شمال فرنسا واستقروا في منطقة النورماندي التي نسبت إليهم. ومن هناك بدأوا يهاجمون سواحل الأندلس الإسلامية سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م. كما حاولوا بقيادة زعيمهم روبير جيسكار أن يقضوا على نفوذ بيزنطية على سواحل الأدرياتيك. وحينما صُدّوا اتجهوا إلى جنوب إيطاليا وصقلية ومالطة وكانت تخضع للفاطميين ولآل باديس في تونس، واستولوا عليها بقيادة ملكهم روجار Roger في سنة ٤٨٤/١٠٩١ بعد أن حطموا سيطرة الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط، وبدأوا يغيرون على مراكب المسلمين

---

(١) ENCY. de l'isl: (ArtSolaiman B.kuttilmish) T. 4 P. 585 – 589 – (Art. KONYa) T. 2 P. 1119.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٢١٧.

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٢٢٢.

المتجهة من مصر إلى افريقيا[1]. كما هاجموا طرابلس الغرب سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م واستولوا على المهدية سنة ٥٤٣ هـ؟١١٤٨ م[2] وقد تحالفوا للقضاء على نفوذ المسلمين في البحر المتوسط مع دويلات قوية بدأت تظهر في إيطاليا، مستقلة عن نفوذ بيزنطية مثل بيزا وجنوة والبندقية.

كذلك جاء الخطر من قبل نصارى الأندلس الذين بدأوا يسترجعون جزءاً فجزءاً الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين فيما عرف بحروب الاسترداد (الريكونكيستا) مستغلين ضعفهم وانقسامهم إلى دويلات يحكمها ملوك عرفوا بملوك الطوائف. ولكن مما حدّ من انتصاراتهم ظهور الدولتين المرابطية والموحدية في المغرب اللتين أوقفتا تقدم الاسبان وجمّدتا نشاطاتهم المعادية إلى حين[3].

(١) ابن الأثير: الكامل ٩/٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/٦؛ ١٢ وعن المهدية ـ ياقوت: معجم البلدان ٦/٣٤ - ٣٦.

(٣) عن هذه المرحلة بالتفصيل.

ـ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس (٦ أجزاء).

ـ أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة عبد الله عنان.

ـ ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والإندلس تعريب السيد عبد العزيز سالم.

ـ عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب والأندلس.

ولكن الخطر الداهم على المسلمين، أتى على الخصوص من عناصر الفرنجة الساكنين فيما سماه المؤرخون العرب في العصور الوسطى بالأرض الكبيرة، وهي تمتد من شمال الأندلس إلى رومة شرقاً[1] وكانت البابوية في روما تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة عليهم. وباستثناء فرنجة فرنسا الذين أغار المسلمون عليهم وهاجموا أراضيهم في عهد الأمويين والعباسيين[2] لمجاورتها الأندلس، لم يكن الإسلام على عداء مع سائر فرنجة أوروبا، إلّا أنهم حينما دعاهم البابا إلى حرب المسلمين لبوا النداء واضحوا من أشد أعداء الإسلام.

ابتدأت أحداث الحركة الصليبية الفعلية يوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٠٩٥م بمؤتمر كليرمونت (Clermont – Ferrand) بجنوب فرنسا[3]، بناء على دعوة البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م)

(١) ابن صاعد: طبقات الأمم ٦٤
المقري: نفح الطيب ٢٥٨/١.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠٢/٥.
(٣)عن خلفيات مؤتمر كلبرمونت، والإعداد له، وما جرى فيه، وخطبة البابا أوربان الثاني أنظر:
ـ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ١٠٩ ـ ١٢٠ وقد أورد لائحة حديثة ومتنوعة بالمصادر والمراجع حول الموضوع.
ـ رنسيمان: الحروب الصليبية ١٠٨/١ ـ ١١٥.

وحضره حشد غفير من الناس، كنسيين وعلمانيين وقد ألقى البابا أوربان في المؤتمر خطاباً حض فيه على حرب المسلمين ولتحرر الكنيسة الشرقية من ربقتهم، والأراضي المقدسة من سيطرتهم مقابل غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحرب سواء مات في الطريق إلى الأراضي المقدسة أو قتل في الحرب ضد المسلمين، كما خطب بطرس الناسك أيضاً[(1)].

ولقيت خطبة البابا العاطفية الحماسية، بما لوحت به من مكاسب دينوية ورغبت بالمكاسب الدينية استجابة فورية

(1) كان بطرس الناسك راهباً في أميان بفرنسا، هجر الدير بتكليف من البابا كي يقوم بالدعوة للحروب الصليبية والتبشير لها. وفي كل مكان كان يذهب إليه، على حماره، يسحر ألباب الفقراء بفصاحته التي تناقض هيئته الزرية. لقد أخذ بطرس يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثيرين غيره في ذلك الوقت الذي تميز بالتديّن الشعبي العاطفي، حتى غدا محور أسطورة، أعتبرها المؤرخون حقيقة تاريخية، كما ألهمت الفنانين والأدباء على مدى عدة أجيال. وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل إثارة الغرب الأوروبي لشن حربه الصليبية ضد الشرق العربي المسلم. ورغم أن الدراسات التاريخيه منذ القرن ١٩م كشفت زيف هذه الأسطورة. فأن بطرس لا يزال يحظى باهتمام المؤرخين باعتباره تجسيداً للحماسة الدينية الشعبية من ناحية، وبسبب تناقض تصرفاته مع المثال الذي بشّر به ودعا إليه، فهذا الرجل الذي اعتبره البعض، في فرنسا موطنه على وجه الخصوص، نبياً للحرب الصليبية هرب أثناء معاناة الصليبيين في حصار أنطاكية سنة ١٠٩٨، وقبض عليه وأعيد إلى المعسكر بصورة مهينة.

ـ رنسهان: الحروب الصليبية ١/١١٣

ـ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ١١٥ ـ ١١٦.

وحماسية تجسدت في الصيحة التي رددها الحاضرة (الله يريد ذلك Dieu le Veut — Dies le volt) والواقع أن هذه الإستجابة لم تكن ناتجة عن فصاحة البابا وقوة بيانه بقدر ما كانت استجابة للمشروع الذي طال انتظارهم له. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحرب الصليبية تتناسب مع العصر تماماً، إذ كان المجتمع الأقطاعي الأوروبي، بغطرسته وكبريائه وتعصبه ضد غير الكاثوليك على اتم الإستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذي يحل مشكلته في الدنيا ويضمن له المغامرة والكسب مثلما يضمن له خلاص الروح.

أخذ الفرنجة يتجمعون في كل مكان لقتال المسلمين وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليباً من قماش أحمر لذلك عرفت الحروب التي قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية، أما المؤرخون العرب فسموها بحركة الفرنج[1].

وقد اشترك في أول موجة صليبية رجال ونساء وأطفال جاءوا من كل مكان في أوروبا يقودهم بطرس الناسك إلى بيت المقدس. حيث تحركوا بزحوفهم الحاشدة عبر وسط أوروبا إلى القسطنطينية، فقتلوا اليهود في طريقهم وسلبوا ونهبوا ويبدو

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤٦/٥.

أن بطرس الذي كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارتها لم يكن يصلح لقيادة جيش عجيب مثل جيشه الذي تألف من المقاتلين والطامعين، والذي ضم مئات من الأفاقين والمجرمين وبنات الهوى والفلاحين المعدمين والفقراء من أهل المدن فضلاً عن عدد صغير من الفرسان. فلما وصلوا إلى أسوار القسطنطينية في سنة ٤٨٩هـ/١٠٦٩م نصحهم ملكها الكسيوس كومينوس (١٠٨١ ـ ١١١٨م) بالاّ يتسرعوا في العبور إلى آسيا الصغرى. ولكنهم أساؤوا التصرف فاحرقوا القصور ونهبوا الكنائس، فأمرهم بالرحيل وسرعان ما وقعوا في كمين اعده لهم السلاجقة فأجهز على الحملة الشعبية في حين تمكن بطرس الناسك من النجاة بنفسه والهرب إلى القسطنطينية[١].

وفي الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة معظمها من فرسان الفرنجة أكثر تنظيماً من السابقة. ولذا كان خطرها شديداً على المسلمين. وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ارتبط اسمهم بهذه الحملة مثل غودفروا دي بويون Godefroi de Bouillon ويسميه العرب كند فريّ أو كند هري، وشقيقه بودوان (Boudouin) ويسمونه بغدوين أو بردويل. وبوهيمند

---

(١) عن الحملة الشعبية وأحداثها التفصيلية ونهايتها أنظر:
- رنسيمان: الحروب الصليبية ١/١٢٣ ـ ١٢٧
- جوزيف نسيم: العرب والروم واللاتين ١٥ ـ ١٧.

النورماندي (Bohémond) ويسمونه بيمنت أو بيمند[1] وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق وسط أوروبا، والبعض الآخر عن طريق سهول إيطاليا الشمالية. فلما وصلوا إلى القسطنطينية سنة ٤٩٠/١٠٩٧ ليعبروا بحر مرمرة أو ما سماه العرب بالخليج أو «المجاز»[2] إلى بلاد الترك السلاجقة لم يمكنهم الكسيوس من العبور حتى يتعهدوا له وأن يقسموا له يمين الولاء بإعادة إنطاكية إذا ما استولوا عليها من السلاجقة.

كانت نيقية أول أهداف الصليبيين. وهي عاصمة دولة سلاجقة الروم يحكمها قلج أرسلان وتتحكم في الطريق الأساسي عبر الأناضول. فتم فرض حصار عليها أستسلمت بعده للإمبراطور البيزنطي خوفاً من وحشية الصليبيين[3]. وكان النصر حافزاً للصليبيين على

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/١٨٥ - ١٨٧.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ١/٤٦٠.

(٣) فرضت قوات صليبية وبيزنطية الحصار على نيقية في ٦ حزيران سنة ١٠٩٧ وكان حاكمها غائباً عنها وحين عاد في الحادي والعشرين من حزيران شن هجوماً على القوات المحاصرة فرد خائباً. وما لبثت أن استسلمت لقوات الإمبراطور البيزنطي الذي عوّض القادة الصليبيين عن الغنائم والأسلاب التي كانوا ينتظرونها بالهدايا التي أغدقها عليهم. وكان انهزام قوات قلج أرسلان الذي قدم للنجدة في بداية شهر ١٠٩٧ نصراً حاسماً للصليبيين إذ توقفت كل مقاومة إسلامية منذ ذلك الحين. وقد بقيت نيقية بيد البيزنطيين إلى وقت مجيء الأتراك العثمانيين.

مواصلة الزحف جنوباً صوب فلسطين. ولكنهم توقفوا أمام أنطاكية لحصانتها[1] ولأن جماعات مسلمة من مدن حلب ودمشق والقدس خرجت لنصرتها. وبعد حصار دام تسعة أشهر استولى الصليبيون على أنطاكية من صاحبها التركي ياغيسيان في آذار ١٠٩٨/٤٩١هـ فلما دخلوها ذبحوا معظم أهاليها المسلمين بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث. ومع أن سلاجقة الشام والجزيرة، ومعهم العرب، ساروا لاستعادتها بقيادة كربوقا التركي أمير الموصل، وكادوا يستولون عليها، وأصبح الصليبيون فيها محاصرين، لكن الانقسامات بين المسلمين أضاع عليهم الفرصة فانهزموا هزيمة منكرة[2].

= ـ ابن الأثير: الكامل ٨/١٨٦ حوادث ٤٩٠

ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١١٤.

(١) عن سقوط أنطاكية بيد الصليبيين يذكر ابن الأثير أنها سلمت بخيانة من زراد اسمه زوربة كان يحمل ضغينة ضد حاكمها ياغيسيان الذي صادر أمواله. أما ابن القلانسي فذكر أن قوماً من أهل أنطاكية من جملة الأمير ياغيسيان من الزرّاد عملوا في أنطاكية واطأوا الأفرنج على تسليمها لهم أنظر:

ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/١٨٦

ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ـ ١٣٦.

ـ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ٢/١٣٣ ـ ١٣٥

ـ ياقوت: معجم البلدان ١/٣٥٨.

ENCY. de l'isl : (Art ANTAKIYA) T. 1 P. 563.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/١٨٦ ـ ١٨٧.

وكان الصليبيون قد اتفقوا مع الكسيوس على أن تسلم إليه أنطاكية، إلاّ أنهم سلموها لبوهيمند الذي تركها بعد ذلك لابن أخيه تنكرد (Tangrid).

بعد هذا الانتصار سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة فاستولوا على مدن عديدة منها الرُّها[1] وأغلب سكانها من الأرمن. لكن أتابكة السلاجقة في الجزيرة تمكنوا من وقف تقدمهم إلى بغداد. كذلك ذهب قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب وكانوا يسيرون على طول الشاطىء وتمدهم المراكب الإيطالية بالذخائر والرجال فكانت مدن الشام العليا وموانيها تسلّم إليهم دون مقاومة. وقد تعامل الصليبيون بمنتهى القسوة مع أهل المدن المستسلمة، فحينما دخلوا معرة النعمان مثلاً، قتلوا من الرجال والنساء أكثر من مائة ألف، وأخذوا من كان حياً لبيعه[2].

(١) كان حاكم الرها (أورفا، أدسا) المدعو ثوروس قد تبنّى بلدوين الذي أنكر الجميل بعد ذلك وشارك في مؤامرة راح الحاكم الأرمني المبس ضحية لها أنظر:
- رنسيمان: الحروب الصليبية ١/٢٠٤ - ٢٠٨.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٢٠٤.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٧٨ - ١٧٩.
- ياقوت: معجم البلدان ٤/٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) استولى الصليبيون على معرة النعمان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وقد غدروا بأهلها بعد أن أعطوهم الأمان وارتكبوا واحدة من مذابحهم البشعة. =

وهكذا قامت إمارتان صليبيتان في بلاد الشام، رغم أن المسلمين كانوا قادرين على إبادة القوات الصليبية لونبذ حكام المنطقة الشك والعداوة التي رسختها طوال القرن السابق حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، الأمر الذي جعلهم عاجزين عن مقاومة قوات الصليبيين. لقد أفاد الصليبيون كثيراً من التشرذم السياسي للحكام العرب والسلاجقة في المنطقة العربية، سواء أثناء تقدمهم في آسيا الصغرى، أو أثناء صراعهم في بلاد الشام. وإذ لم يدرك المسلمون حقيقة الخطر المحدق بهم فانهم لم يروا ضرورة تدعوهم لنبذ ما هم فيه من خلافات[1]. ولا بُدّ أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة بيزنطية من النمط الذي تعودوا عليه. أما الفاطميون الشيعة فإنهم لم

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/١٨٧ - ١٨٨.
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٣٦ - ١٣٧.
- رنسيمان: الحروب الصليبية ١/٢٥٧ - ٢٥٨.
- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ١٢٦.

(١) في سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م وبعد أن كان الصليبيون قد دخلوا المنطقة بالفعل هاجم جيش مصري مدينة صور وفتحها عنوة وأخضعها للفاطميين. كما نشبت حرب أخرى بين دقاق حاكم دمشق وأخيه رضوان أمير حلب الذي استعاد باغيسيان أمير أنطاكية انظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/١٨٢ - ١٨٥
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٣٣ - ١٣٤.

يفكروا أبداً في مساعدة السلاجقة السنّة ضد الصليبيين، وإنما حاولوا التفاهم مع الصليبيين على اقتسام الأرض والنفوذ على حساب الأتراك السلاجقة، حيث أرسل الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي سفاره لمفاوضة الصليبيين وهم أمام أنطاكية على اقتسام بلاد الشام. ولم تثمر هذه المحاولات شيئاً[1] وعاد سفراء الأفضل ومعهم رسل من الصليبيين إلى القاهرة، ولكنهم لم يكونوا مفوضين بأي سلطات ولا شك أن الفاطميين، كالسلاجقة، ظنوا أن هذه الجيوش القادمة من الغرب الأوروبي مجرد مرتزقة في خدمة البيزنطيين.

وقرر الأفضل أن يفيد من الحرب الدائرة في شمال بلاد الشام بين السلاجقة والصليبيين، وبمجرد أن سمع بهزيمة قربوغا في أنطاكية، أدرك أن السلاجقة ليسوا في وضع يسمح لهم بمقاومة هجوم جديد، فشن هجوماً على فلسطين التي كانت في حوزة سقمان وأيلغازي ابني أرتق، وكانا يدينان بالولاء لأمير دمشق دقاق. وفي سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) استولى على القدس وأناب فيها قائداً اسمه افتخار الدولة[2].

(١) رنسيان: الحروب الصليبية ١/٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/١٨٩
ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥.

وفي الشمال من بلاد الشام، كانت الأسر العربية الحاكمة تراقب انهيار السلاجقة في سرور، ولم يتدخل أحد إلى جانبهم. ويذكر ابن الأثير مانصه: «وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب وصاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية. . . . .»[1]. وإذا كان رضوان ودقاق السلجوقيان، قد اتخذا هذا الموقف، فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحاً.

وتحرك ريمون دي تولوز من معرة النعمان على رأس قواته، جنوباً بحذاء منحدرات جبل النصيرية دون مشاكل، لأن الأمراء المحليين كانوا غاية في الضعف والتشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال والهدايا تحاشياً لهجوم الصليبيين عليهم. وبعدما حدث في أنطاكية والرها ومعرة النعمان، قرر أمراء دمشق وحلب والموصل اتخاذ موقف المراقب السلبي. وجنوب طرابلس اتخذ الصليبيون الطريق الساحلي، ثم أنضم غود فري وتنكريد وبوهيمند إلى الجيش الزاحف جنوباً. وقد استولى الصليبيون في طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب الذي كان يمثل

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٨٦/٨.

منطقة الحدود بالنسبة للممتلكات الفاطمية، وتوغل الصليبيون في الأراضي الفاطمية، ولم يدرك الفاطميون حقيقة الخطر الصليبي إلّا بعد فوات الأوان.

كان الفصل الأخير في الحملة الصليبية الأولى، هو الحصار الذي ضربه الصليبيون على مدينة القدس على مدى خمسة أسابيع: من ٧ حزيران إلى ١٥ تموز ١٠٩٩م[١] استبسل خلالها المدافعون فكانوا يفضلون الإنتحار بالقاء أنفسهم من الأبراج عن تسليم أنفسهم[٢] وفي يوم الجمعة ١٥ تموز ١٠٩٩م (٢٢ شعبان ٤٩٢هـ) تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة، ولم ينج من سكانها سوى قائد الحملة الفاطمية افتخار الدولة وعدد من رجاله. وأعقب ذلك مذبحة فظيعة، وابيحت المدينة للسلب والنهب والقتل عدة أيام وجرى الدم في الشوارع وظلت الجثث مطروحة في الشوارع أياماً.

(١) عن رحلة الصليبيين من أنطاكية ومعرة النعمان حتى سقوط القدس أنظر:
- رنسيمان: الحروب الصليبية ٢/ ٥٩ - ٦٢
- سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب ١٨٩ - ١٩١.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩ وما بعدها
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٩.

وكان الوزير الأفضل، لما بلغه وصول الصليبيين إلى القدس، قد حشد العساكر المصرية وسار بهم، فلما قرب من القدس، كانوا قد فتحوها، وهجموا عليه وهزموه وأحرقوا من التجأ من عساكره إلى الغابات[1]. وقد فرحوا بهذا الإنتصار والوصول إلى قبر المسيح بحيث أنهم كانوا يبكون من شدة الفرح. وهكذا سقطت القدس في أيدي الصليبيين بعد أن ظلت في يد المسلمين منذ فتحها زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ/٦٣٨م.

وعندما خفّت شهوة القتل لدى الصليبيين، كانت أولى المهام التي واجهتهم هي مواراة الجثث التي فاضت منها الروائح النتنة في كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما. ثم بدأت مناقشة مشكلة حكم المدينة المقدسة. واجتمع الزعماء الصليبيون، قساوسة وعلمانيين، لكي يقرروا ما ينبغي عمله في هذا الصدد. وقد حدث نزاع على من يتولى السلطة العليا فيها، فقد تنازعتها البابوية، التي كانت تأمل بالسيطرة على الكنيسة الشرقية بالإضافة إلى سيطرتها على الكنيسة الغربية، والمدن الإيطالية التي قامت بنقل الجنود والإمداد على متن سفنها، وبيزنطة التي كانت تريد استعادة مستعمراتها

(١) وليم الصوري: تاريخ ١/ ٣٧٩-٣٨٣
- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ١٣٠.

في الشرق. ولكنهم اتفقوا أخيراً على أن يكون غود فري (كند فري أو كند هري) حاكماً عليها تحت لقب «حامي الضريح المقدس»[1] وكان هذا الحل الوسط في حقيقة الأمر هروباً من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم في هذه الدولة الوليدة.

وفي الثاني عشر من تموز عام ١١٠٠ مات غود فري أثناء محاولته مد نفوذه في السهل الساحلي بمساعدة البنادقة الذين قدموا قبل شهر واحد من موته لينافسوا أهل بيزا في الإفادة من النصر الصليبي. وتمّ استدعاء بدوين من إمارته في الرها ليتولى حكم بيت المقدس خلفاً لأخيه المتوفي. وفي الخامس والعشرين من كانون الأول تم تتويجه. وهكذا قامت مملكة بيت المقدس اللاتينية، التي تكونت بالإضافة إلى القدس من يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل وأريافها التي تسكنها أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

وعلى الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا إلاّ أن العدد الأكبر منهم بقي في المنطقة حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة الإستعمارية الإستيطانية،. ولأنهم كانوا أقل كثيراً في عددهم من المسلمين والعرب

---

(١) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٣١.

أصحاب البلاد، فقد حاولوا جهد طاقتهم أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم. كما كانت من ناحية أخرى أخبار النجاح الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربي رغبة في الحصول على نصيب من المغانم التي شاعت أخبارها في الغرب الأوروبي على ألسنة العائدين من فلسطين وبدأت الدعاية لخروج حملة صليبية جديدة لمساعدة المؤمنين في «جيش الرب» تحقق نجاحاً ملحوظاً.

وفي سنة ١١٠١م كانت حملة جديدة قد تجمعت في الغرب الأوروبي لمساعدة صليبيي الشرق، وكانت عبارة عن جموع من اللمبارديين تشبه جموع بطرس الناسك من قبل، يتحرقون شوقاً للرحيل وقد غادرت ميلانو في ١٣ حزيران سنة ١١٠١ وسلكت الحملة الطريق نفسه الذي سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا في إثارة المتاعب الصليبية المعتادة. ولم يجد الإمبراطور الكسيوس كومينوس بدأ من نقلهم إلى آسيا الصغرى. وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية ثم الفرنسية. وفي تلك الأثناء كان بوهيمند أمير أنطاكية أسيراً لدى أمير سيواس الملك الغازي بن الدانشمند. وسيطرت على النورمان فكرة الزحف لتحريره. ولكن السلاجقة الذين علمتهم أحداث الحملة

الأولى درساً قاسياً، اتَّحدت جهودهم في مواجهة جيوش الحملة الصليبية الجديدة، فأطبقت جيوش قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، ورضوان أمير حلب، والغازي أمير سيواس على الصليبيين، الذين تبددَّ جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء في الوقت المناسب ليحاولوا الإشاعة أن الهزيمة كانت بسبب خيانة الإمبراطور البيزنطي. وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس(١).

ومن ناحية أخرى، بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم في الأراضي والموانىء التي كانت تفصل، أو تصل، بين المناطق المتناثرة التي استولوا عليها، وفي بطء بدأوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، على حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة عن التصدي لهم تماماً ففي سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م استولى الصليبيون على سروج، وحيفا، وأرسوف، ثم قيسارية وكان الجنويون بأساطيلهم خير عون لهم في هذا الهجوم(٢).

(١) عن أحداث حملة سنة ١١٠١ التي عرفت بصليبية ذوي القلوب الضعيفة، لأن معظم قادتها كانوا ضمن من هربوا أثناء الحملة الأولى أنظر.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢١١/٨
- رنسيمان: الحروب الصليبية ١٨/٢ ـ ٣١.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٠٤/٨
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٣٨ ـ ١٣٩.

وحاول الفاطميون في السنة التالية (١١٠٢م) أن يشنوا هجوماً مضاداً على الصليبيين ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة الخسائر التي نزلت بالصليبيين[١]. ثم استولى تنكرد من البزنطيين على اللاذقية سنة ١١٠٣ م.

وعبثاً حاول الفاطميون أن يستردوا من الصليبيين أملاكهم، ولكن محاولاتهم لم تثمر شيئاً وأخذ الصليبيون من ناحية أخرى يتقدمون بسهولة بسبب تفرق المسلمين. وقد أشار ابن الأثير إلى حراجة الوضع وسلبيته بقوله: «لما استطال الفرنج خذلهم الله تعالى بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذٍ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء. . . . .»[٢].

وفي سنة ١١٠٤م ملك الصليبيون عكا، ثم طرابلس بعد حصار دام سبع سنوات مات أثناءها ريمون دي تولوز، وقد اظهرت طرابلس تحت قيادة فخر الملك بن عمار بطولة

---

(١) نجا بلدوين الأول في هذه المعركة التي جرت سنة ٤٩٥هـ بصعوبة بالغة وفر إلى الرملة. أنظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢١٢/٨
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٢١/٨.

وصبراً رائعين طوال سنوات الحصار السبع، وأخيراً سقطت المدينة سنة ١١٠٩م[1]. وبذلك قامت الإمارة الصليبية الثالثة إلى جانب الرها وأنطاكية، فضلاً عن مملكة بيت المقدس.

طوال تلك الفترة وبعدها، لم تتوقف المقاومة الإسلامية في الشمال من جانب السلاجقة الذين نجحوا في أسر بوهيمند فترة من الزمن، ثم أسروا بلدوين كونت الرها وجوسلين. كما أن الفاطميين في الجنوب استغلوا قاعدتهم في عسقلان لشن هجمات ضد الصليبيين في سنوات ١١٠١م، ١١٠٢م، و ١١٠٥م، وقد كلفت هذه الهجمات الكثير من الخسائر في الرجال والأموال بيد أن بذور الشك والمرارة لا زالت تفعل فعلها، فمنعت أي تنسيق جدي على محور القاهرة دمشق، وبعد ١١٠٥م لم يشن المصريون أي هجوم خطير على الصليبيين، بيد أن عسقلان ظلت مصدر تهديد دائم على الصليبيين.

في تلك الأثناء تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم

---

(١) كان سقوط عكا سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤ بعد أن حاصرها الجنويون من البحر والصليبيون من البر وفي سنة ٥٠٢ (١١٠٩) سقطت طرابلس أيضاً أنظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٢٣٥، ٢٥٨ - ٢٥٩
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٤٣ - ١٤٤ - ١٦٣.

على الساحل كله[1] باستثناء صور وعسقلان. وكان معنى هذا اختلال التوازن العسكري لصالحهم بالشكل الذي أقلق إمارة دمشق وإزاء الفشل على محور دمشق القاهرة، بدأ أمير دمشق طغتكين (١٠٩٥م - ١١٢٨م) يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد مودود (١١٠٨م - ١١١٣م) الذي كان يحاول تنظيم تحالف إسلامي كبير لطرد الفرنج من بلاد الشام ومن المنطقة العربية[2]. ولكن هذه المحاولات لم تؤت ثمارها لأن المنازعات بين العناصر العربية والعناصر التركية في بلاد الشام حالت دون ذلك، كما أن سلاطين السلاجقة كانوا أكثر إهتماماً بفارس منهم بالبلاد الشامية.

في تلك الأثناء كانت ثمة تغيرات هامة قد جرت في معسكر الصليبيين، إذ مات بوهيمند سنة ١١١١م، ثم تلاه تنكرد سنة ١١١٢م. وبذلك قوي مركز بلدوين الأول كثيراً

---

(١) في سنة ٥٠٤/١١١١م استولى الصليبيون على صيدا.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٢٦٠.

(٢) في سنة ٥٠٥هـ اجتمع جيش كبير بأمر من السلطان محمد بن ملكشاه سلطان السلاجقة في فارس، وكان مكوناً من جيش مودود أتابك الموصل، وسكمان صاحب تبريز، والأمير أيلبكي، والأمير زنكي، وعدة أمراء آخرين. وقد تمكنوا من فتح عدة حصون للفرنج، ثم حاصروا مدينة الرها دون طائل، وفي تلك الأثناء هاجم رضوان أمير حلب ممتلكات الصليبيين انظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٢٦٢ - ٢٦٣.

بالشكل الذي أغراه بنقض تحالفه مع طغتكين أمير دمشق[1].

وعلى الجانب الإسلامي كانت تجري محاولات جدية لتوحيد الجهود ضد الصليبيين. وقد انتهز مودود أتابك الموصل فرصة استنجاد طغتكين به، فجمع جيشاً كبيراً لمهاجمة الصليبيين في فلسطين هذه المرة. ففي سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) تقدمت جيوشه مع جيوش أمير سنجار، وطغتكين أمير دمشق والأمير أياز بن أيلغازي صوب فلسطين. وبالقرب من طبرية تم تدمير الجيش الصليبي تماماً[2]. بيد أن اغتيال مودود على يد أحد الباطنية في آخر يوم جمعة في شهر ربيع الثاني من هذه السنة (تشرين الأول ١١١٣م)، ثم موت رضوان أمير حلب في جمادى الآخرة في السنة نفسها، خفّف من وطأة الهجوم الإسلامي على جبهة الشمال[3].

ولم يكن ثمة حادث مهم في الفترة الباقية من حكم بلدوين الأول ملك بيت المقدس، سوى محاولته غزو مصر

(١) كانت قد أبرمت هدنة بين الطرفين سنة ١١٠٨م. وعن تفاصيل الأحداث أنظر:
ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٤
ـ رنسيمان: الحروب الصليبية ٢/١٢٤ ـ ١٢٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٢٦٦
ـ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ١٨٧ ـ ١٩١.

سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ولكن مرضاً عضالاً أصابه، فعاد مسرعاً إلى فلسطين ليلقى حتفه[1]. وتنتهي بذلك مرحلة التوسع الصليبي التي قادها هذا الملك لتبدأ مرحلة التوازن بين الجبهة الإسلامية في الشمال وبين الصليبيين، بحيث يتجه الجانبان في أنظارهما شطر مصر التي بدأ الصليبيون يحاولون التوسع على حسابها.

ومعنى هذا أن النصرانية قد عادت منتصرة إلى الشام والجزيرة، وأنه أصبحت لها مملكة وإمارات في هذه البلاد بين إمارات السلاجقة وأتابكياتهم، وعلى حدود مصر، ونميز منها: إمارة الرها على الفرات التي كان يتبعها عدة بلاد، وإمارة أنطاكية في الشمال التي امتدت إلى جبال طوروس وشمال الشام، ومملكة القدس التي امتدت من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر، وإمارة طرابلس التي نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، واعتبرت منفذاً لها على الساحل، وامتدت من حمص إلى شمال لبنان دون أن تدخل فيها إمارة دمشق السلجوقية، ومع ذلك، فإن مملكة بيت المقدس كانت أهم بلاد الفرنجة، إذ كان يخضع لها أشرافهم في الشام

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٣٢٣-٣٢٤
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/١٧١.

والجزيرة. وموقفهم منها يشبه موقف الإمارات السلجوقية وأتابكياتها من السلطان السلجوقي في العراق.

٣ ـ المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين ودور آل زنكي وآل أيوب.

لم تكن المواجهة الصليبية العربية الإسلامية مجرد صدام عسكري، وإنما كانت صداماً بين حضارتين. وقد تجلّت الاستجابات التي خلفتها هذه المواجهة في عدة مستويات سياسية وعسكرية وإقتصادية وإجتماعية. هذا التفاعل بين هذه الجوانب جميعاً أمر تحتمه ضرورة حركة التاريخ، ومن ثم يصعب الفصل بينها بشكل قاطع.

إن الإستجابة الأولى للتحدي الذي فرضه العدوان الصليبي على العالم العربي تبرز في الحقيقة القائلة أن نموذج دولة الخلافة قد انتهى عملياً على الرغم من بقاء الخلافة لتلعب دور الرمز الديني والواجهة الشرعية ليتكرس نموذج الدولة العسكرية كبديل مناسب بشرط أن تقوم بتوحيد الجهود في مواجهة الصليبيين. وهذا الدور التاريخي هو الذي يضفي عليها الشرعية في نظر رعاياها، كما أنه مبرر وجودها واستمرارها.

لقد شكل الغزو الصليبي صدمة نفسية مؤلمة وأثارت

أعداد اللاجئين الهاربين من مذابح الفرنج مشاعر الاستياء والغضب في كل مكان ذهب إليه هؤلاء اللاجئون رأدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاؤوا إلى بلادهم بقصد البقاء. وبدأ العالم الإسلامي يشهد ظاهرة إيجابية، جاءت هذه المرة من جماهير الناس العاديين، إذ تشكل رأي عام قوي وضاغط بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام وأنانيتهم، وضيق افقهم الذي ضيّع البلاد وأذلّ العباد[1]. وأخذ الفقهاء والعلماء يخطبون من فوق منابر المساجد في فضل القدس الشريف وفضل الجهاد والمجاهدين، ولم تكن حلقات الدروس تخلو من حديث حول القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، كما دبجت الكتب والرسائل التي تتناول هذا الموضوع بشكل أو بآخر. وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسري بين الناس في العالم العربي الإسلامي بسرعة كبيرة بحيث عمت سائر المناطق. وسرعان ما تحولت إلى حركة رأي عام ضاغطة يقودها أصحاب

(١) أشار ابن الأثير إلى هذا التحرك الشعبي الذي بدأت تبدو بوادره وذلك في حوادث سنة ٤٩٢هـ عندما ذكر مانصه: «وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهروي. فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب. وقاموا في الجمعة يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا. وذكر ما دهم المسلمين بذلك الحرم الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد........» أنظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٨٩/٨.

الرأي والمفكرون. وفي رحم هذه الحركة القوية تبلورت إتجاهات المقاومة العربية الإسلامية ضدالصليبيين. وفي ظل هذا البعث الإيديولوجي ظهر آل زنكي في الموصل إعتباراً من سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م ليقودوا حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية وما لبث عماد الدين زنكي أن صار أقوى حاكم مسلم في زمانه، لأنه طوع قوته وموارده العسكرية في خدمة المطلب العربي الإسلامي العام، أي الجهاد ضد الصليبيين. فقد كانت المدارس والعلماء والمفكرون قد مهدوا السبيل بخلق مناخ للرأي العام القوي المطالب بوجوب الجهاد ضد الوجود الصليبي. وجاء عماد الدين زنكي استجابة تاريخية للمطلب العربي الإسلامي العام[1]. من ثم برزت أتابكية الموصل، باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التي يقودها ملك مقاتل لكي تتولى الجهاد ضد الصليبيين حتى نجحت في طردهم نهائياً من المنطقة العربية بعد فشل الخلافتين العباسية والفاطمية في التصدي لهم. هذه الدول هي: الزنكية ـ الأيوبية ـ ثم المملوكية.

---

(١) عن عماد الدين زنكي وسيرته وأعماله أنظر:
ـ أبو شامة: الروضتين ١/٥٨ ـ ١١٥
ـ ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية ١٣٦ ـ ١٣٥.
- ENCY. de l'isl: (Art Zingı) T. 4 P. 1294 – 5.

تمكن عماد الدين زنكي تدريجياً من التغلب على النعرات الانعزالية في كل من بلاد الشام والعراق والجزيرة. وفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م ملك مدينة حلب وقلعتها. وكان هذا أمراً في غاية الخطورة على الصليبيين في شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية. وفي العام التالي استولى على حماه. ثم توالت فتوحاته وتوسعاته حتى استولى على حمص ٥٣٢هـ/١١٤٣. وبذلك صار الطريق ممهداً أمامه لتوجيه ضربة قوية للصليبيين.

وجاءت هذه الضربة سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م حين استطاعت قوات عماد الدين زنكي أن تستولي على الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً[1] وكانت تلك هي أول إمارة صليبية قامت على أرض الشرق العربي الإسلامي وأول إمارة خسروها في حرب الاسترداد الإسلامية لذا كان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة على الصليبيين ترددت اصداؤها في كل مكان[2] إذ أن المدينة كانت ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما

(١) عن سقوط الرها بيد عماد الدين زنكي أنظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٨-٩
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ - ٢٨٠.
- رنسمان: الحروب الصليبية ٢/٢٣٤ - ٢٣٦.

(٢) قدّر البيزنطيون خطر سقوط الرها فخرجوا بجيوش كثيفة من الروم والأرمن

أن سقوطها بعد أقل من خمسين عاماً على استيلاء بلدوين دي بويون عليها كان نذير شؤم بالنسبة للصليبيين.

وعلى الجانب العربي الإسلامي كان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكي تعزيزاً لجهود التوحيد العربية الإسلامية من جهة وتدعيماً له في مواجهة النعرات الإنعزالية من جهة ثانية. وعلى المستوى العسكري كان سقوط الرها بيد المسلمين كسباً كبيراً لأنه جعل وادي الفرات كله منطقة إسلامية. كما ضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التي تربط بين شمال الشام والعراق والجزيرة.

أما في الغرب الأوروبي، فعلى الرغم من الحزن الذي عم الناس هناك، إلاّ أن أحداً لم يحاول أن يجنّد حملة صليبية سريعة. وجاء وفد من فرنج الشرق لمقابلة البابا ايجينوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣) بعد أن اعتلى العرش البابوي بوقت قصير، ثم جاء وفد من الأرمن يستنهض همم البابوية وملوك

= والفرنجة بقصد الإستيلاء على حلب، فاضطر عماد الدين إلى طلب العون من بغداد. إلاّ أن الخليفة والسلطان لم يهتما بطلبه. ورغم ذلك استطاع أن يرغم البيزنطيين على التقهقر بل واستولى على بعض الثغور بين الشام وأنطاكية لتقوية مركزه. أنظر:

- أبو شامة: الروضتين ١/ ٣٢ - ٣٤.
- ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١/ ٧٨ - ٨١.

الغرب لمحاولة استرداد الرها. وفيما بين سنتي ١١٤٥ و ١١٤٩م جرت أحداث هذه الحملة التي عرفت في تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الصليبية الثانية[1] وكانت بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك المانية فاخترقت جنودهما بلاد وسط أوروبا، واتجهت نحو القسطنطينية. ولكن الترك السلاجقة في آسيا الصغرى تمكنوا من القضاء على الجزء الأكبر من جيوشهما في ١١٤٦/٥٤١. وبقي الملكان ومع قلة وصلا بها بحراً إلى أنطاكية بعد أن نجا لويس من القتل أو الأسر بأعجوبة.

أما موقف الصليبيين في بلاد الشام فلم يكن أفضل. فعلى الرغم من أن عماد الدين زنكي لقي مصرعه على يد بعض خدمه غيلة في السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤١/ ١١٤٦[2] وانقسام مملكته بين ولديه غازي الذي استولى على الموصل والجزيرة ونور الدين وكان من نصيبه حلب، فقد فشل جوسلين أمير الرها في هجومه على المدينة

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ٢٩٧ ـ ٣٠٠.
(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ويذكر أن خادمه هذا أسمه برنقش وأصله أفرنجي.
ـ أبو شامة: الروضتين ٤٢/١
ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٣/٩.

لاستردادها لأن نور الدين أفشل محاولته وانتظر المسلمون والفرنج ما يسفر عنه قدوم جنود الحملة الثانية ولكن لويس السابع الذي أقلقته مكائد أمير أنطاكية والإشاعات التي راجت عن وجود علاقة غرامية بينه وبين زوجته، تجاهل الرها وسار حتى انضم إلى بقايا جيش كونراد الثالث في فلسطين وبدلاً من محاولة استرداد الرها سار كونراد نحو أتابكية دمشق، حيث لحق به عندها ملك بيت المقدس وحاصرها سنة ٥٤٣/١١٤٨م فجاء غازي ونور الدين لنصرة صاحب دمشق معين الدين أنر. لكن معين الدين الذي خاف على ملكه من ولدي عماد الدين، أرسل إلى الفرنجة وصالحهم بتسليم بعض القلاع والمال[١]. وعاد كونراد إلى المانيا، كما عاد لويس بعد أن مكث في الأرض المقدسة حتى عيد الفصح سنة ١١٤٩م.

وهكذا باءت الحملة الصليبية بالفشل وأصبح نور الدين

(١) تولى معين الدين أنر منصب الأسفهسلار، وهي كلمة فارسية مشتقة من سباه سلار الفارسية وتعني القائد العام للجيش، بدمشق زمن البوريين (٥٣٢هـ) ثم ارتفع شأنه حتى حاصر نور الدين دمشق فتصالحا وتزوج نور الدين ابنته وقد توفي أنر في دمشق سنة ٥٤٤هـ.
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٦٤ - ٣٠٢
- أبو شامة: الروضتين ٢/٥١ - ٥٢.
- ابن واصل: مفرج الكروب ١/١١٢ وما بعدها
- ابن الأثير: الباهر في الدولة الأتابكية ٥٩.

أكبر الأتابكة الزنكيين بعد وفاة أخيه الأكبر غازي في الموصل سنة ٥٤٤/١١٤٩م[١] وتنازل أخيه الأصغر قطب الدين مودود عن أملاكه في الشام لقاء وراثته أملاك أخيه غازي بالجزيرة. مما جعله يفكر جدياً في الإستيلاء على أتابكية دمشق لا سيما وأن حاكمها معين الدين أنر لا يزال يمثل عقبة كأداء في وجه محاولاته لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية. ففي كل مرة كان نور الدين يظهر بقواته أمام دمشق كان الصليبيون يسرعون لنجدتها، ومما جعله يعجل أيضاً هو استيلاء الفرنجة على عسقلان أكبر معاقل المصريين بالشام سنة ٥٤٨/١١٥٣م[٢] الأمر الذي قوّى أملهم في أخذ دمشق ولا سيما أن معين الدين أنر كان قد توفي، وضعُف مجير الدين صاحبها، ووعد الفرنجة بتسليم بعلبك. كما ورده تقليد من الخليفة العباسي المتقي على البلاد الشامية وكذلك المصرية[٣]. وفي سنة

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/٦٥-٦٦

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٢٤.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٢٦-١٢٧

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٤٢.

- رنسيمان: الحروب الصليبية ٣/٣٣٧-٣٤٢.

(٣) يذكر ابن القلانسي مانصه: «وتسرع بعض الرجالة إلى السور وعليه امرأة يهودية فأرسلت إليه حبلاً فصعد عليه وحصل على السور ولم يشعر به أحد. وتبعه من تبعه وصاحوا أصحاب نور الدين: يا منصور. وامتنع الأجناد =

٥٤٩ هـ/١١٥٤م نجح نور الدين محمود في دخول دمشق برغبة أهلها ونقل إليها مركز حكمه بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق. وعيّن نجم الدين أيوب حاكماً عليها شيركوه نائباً عنه وصلاح الدين رئيساً لحاميته[1].

وهكذا تم توحيد الجبهة الشمالية تحت قيادة نور الدين محمود، وبسبب تماسك هذه الجبهة وهجمات المسلمين المستمرة فيها ضد الصليبيين اتجهت الأنظار إلى مصر التي كانت تعاني الضعف السياسي آنذاك. إذ كانت الخلافة الفاطمية في الطور الأخير من عمرها، عارية إلّا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، إذ انهكتها الكوارث الطبيعية[2] والمنازعات الداخلية. ومنذ وزارة بدر الدين الجمالي صار الوزراء أصحاب السلطة الحقيقية، وأصبح

= والرعية من الممانعة لما هم عليهم من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره، أما مجير الدين حاكم المدينة فقد حصل على الأمان.
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٧
- أبو شامة: الروضتين ١/٦٩ - ٧٠.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٨.

(٢) كانت الشدة المستنصرية التي عرفتها مصر في حكم الخليفة المستنصر الفاطمي (٤٢٧هـ-٤٨٧هـ) ١٠٣٢ - ١٠٩٤م من أهم أسباب التدهور الإقتصادي الذي بدأ منذ ذلك الحين.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/١٧٣.

الخلفاء العوبة بين أيديهم. كما توالى جلوسهم على كرسي الحكم في إيقاع سريع يدل على مدى الإضطراب والتدهور[1] وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى زيادة منحى التدهور في قوة الدولة الفاطمية بشكل أغرى جيرانها بالطمع فيها. لقد كانت الدولة الفاطمية في ذلك الحين أشبه بالرجل المريض الذي ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم ما يستطيع الحصول عليه من تركته.

ولما كانت مصر بمواردها البشرية والإقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولي عليها، أو يضمها إلى جانبه في الصراع الدائر آنذاك بين نور الدين محمود والصليبيين، فان كلاً من الطرفين آثر ألّا ينتظر النهاية الطبيعية للدولة الفاطمية وإنما يبادر إلى وضع حد لهذه النهاية.

كانت الأحداث السياسية في مصر تجري بسرعة نحو

---

(١) يشير ابن الأثير في عدة مواضع إلى عدم قدرة الخلفاء الفاطميين. ففي حديث له عن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي قال: «وكان هو الحاكم في دولة المستنصر والرجوع إليه» وفي حديثه عن الخليفة الحافظ يقول: «ولما ولي استوزر أبا علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي فاستبد وتغلب على الحافظ وحجر عليه وأودعه في خزانة لا يدخل إليه إلّا من يريده أبو علي، وبقي الحافظ أسماً لا معنى له».

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/٣٣٢

- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٢٨ - ٢٢٩.

التدهور، فمنذ اغتيال الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٥/١١٢١م[1] لم يعد هناك حاكم قوي في مصر يستطيع إدارة دفة الأمور. ودخلت البلاد في دوامة لا نهاية لها من المؤامرات والدماء، بحيث انتعشت آمال الأعداء المتربصين خارج الحدود، وفي سنة ١١٥٠م بدأ بلدوين الثالث (١١٤٣ - ١١٦٣م) في إصلاح تحصينات غزة، مما كشف عن نيته المبيّتة في الهجوم على مصر بوضوح، وكانت عسقلان لا تزال بأيدي المصريين وتمثل تهديداً محتملاً ضد الوجود الصليبي في فلسطين. وفي سنة ٥٤٨/١١٥٣م تمكن الصليبيون من الإستيلاء على مدينة عسقلان[2]. وهكذا لم يتم إخضاع الساحل الفلسطيني كله للصليبيين إلّا بعد نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى. وهكذا تمت موازنة الهزائم التي لقيها الصليبيون على الجبهة الشمالية ضد نور الدين محمود بانتصارهم في عسقلان ضد الدولة الفاطمية المتهاوية.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٢/٢٩٧ - ٣٧٧.

(٢) من المهم أن نشير إلى أن ابن الأثير أشار إلى الضعف السياسي الداخلي للفاطميين بقوله: «وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته».
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٤٢
- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢١ - ٣٢٢.
- رنسيمان: الحروب الصليبية ٢/٣٣٧ - ٣٤٢.

وحين مات بلدوين الثالث في ١٠ شباط ١١٦٣م، كان واضحاً أن سياسته الخارجية التي قامت على أساس غزو مصر لم ولن تتوقف إذ أن سياسة خليفته أملريك الأول (عموري) (١١٦٣ - ١١٧٤م) كانت في حقيقة أمرها سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر. وكانت الظروف تحتم تلك السياسة، إذ أن إتحاد حلب ودمشق تحت حكم نور الدين محمود جعل من غزو مصر الحل الوحيد لنجاة الصليبيين. إذ أدرك أملريك الأول أن سقوط مصر في يد المسلمين السنة في بلاد الشام سيجعل الدويلات الصليبية بين حجري الرحى. ولكن من سوء حظ الملك الصليبي أن نور الدين محمود كان مدركاً لأهمية التطورات السياسية الداخلية في مصر على مجريات الصراع الإسلامي الصليبي[1]. وهكذا كان نور الدين واملريك على أهبة الإستعداد لبدء السباق للفوز بالجائزة الكبرى، وهي مصر بمواردها الإقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيراً سنحت الفرصة لتدخل الجانبين. فبعد موت الوزير الفاطمي الصالح بن رزيك سنة ٥٥٨/١١٦١م أندلع الصراع على كرسي الوزارة بين ابنه العادل الذي مكث على كرسي الوزارة خمسة عشر شهراً، شاركه أثناءها شاور حاكم

(١) الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ٢٢.

الصعيد الذي قتل ابن رزيك، ثم حاجبه ضرغام الذي بادر بقتل كبار الأمراء الذين كان يخشى منهم على نفسه وعلى منصبه[1]. ولم يجد شاور بداً من الهرب صوب بلاط نور الدين محمود على حين وجد الملك الصليبي أملريك في الفوضى الضاربة في مصر آنذاك فرصة ملائمة للهجوم على مصر بحجة عدم دفع الجزية التي تقررت على مصر للصليبيين في عهد سلفه بلدوين الثالث. وفي سنة ١١٦٣م كانت قوات أملريك تعبر برزخ السويس. ثم حاصر مدينة بلبيس. ولكن ضرغاماً الذي انفرد بكرسي الوزارة والسلطة تصدى له وقطع جسور النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقاً صعباً جعل الصليبيين يرجعون القهقرة إلى فلسطين[2] ولكن إلى حين.

وفي تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور يحث الخطى نحو بلاط نور الدين محمود في دمشق ليطلب حملة عسكرية يستعيد بها كرسي الوزارة الضائع في القاهرة. وفي

(١) يذكر ابن الأثير أن ما فعله ضرغام من قتل الأمراء المصريين أضعف الدولة كثيراً أنظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨١/٩
- أبو شامة: الروضتين ١٣٠/١.
(٢) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٤٠.

مقابل ذلك عرض أن يتكفل بنفقات الحملة، وأن يتنازل عن بعض مناطق الحدود المصرية لنور الدين محمود، وأن يعترف له بالسلطة على مصر، ويرسل إليه ثلث الموارد المصرية سنوياً.

واستجاب نور الدين محمود لطلب شاور وأرسل معه حملة يقودها أسد الدين شيركوه وبرفقته ابن أخيه، الشاب الذي لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، صلاح الدين يوسف الأيوبي الذي خلف فيما بعد نور الدين في قيادة الجهاد ضد الصليبيين.

ولكن ضرغاماً الذي بلغته أنباء الإتفاق بين شاور ونور الدين تحرك بدافع من شهوة السلطة والأنانية السياسية، فأرسل يستنجد بالصليبيين، ولم يتردد عموري (املريك) وعلى الفور تحركت حملة صليبية بقيادته ضد مصر. وخلال الست سنوات التالية قام هذا الملك بغزو مصر خمس مرات[1]. لقد انتقل الصراع بين نور الدين والصليبيين من شمال بلاد الشام إلى ميدان جديد هو شرق دلتا النيل، وعلى طول المسافة ما بين

---

(١) عن تفاصيل هذا الصراع أنظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٩٤-١٠٦
- أبو شامة: الروضتين ١/١٣٠ - ١٣٢.
- رنسيمان: الحروب الصليبية ٢/٣٨٥ - ٣٨٨.

الفرما والقاهرة. وكانت هذه النقلة في مجال الصراع أكثر من مجرد نقلة جغرافية. لقد كانت بمثابة تطور جديد في المفاهيم السياسية، فقد فرض منطق التاريخ وحقائق الجغرافية أن تكون مصر ميداناً رئيسياً في الحرب الصليبية، لاهامشاً عرضياً من هوامش ذلك الصراع الطويل المضني.

على أي حال أدت محاولات أملريك الفاشلة ضد مصر إلى نتيجتين في غاية الأهمية، أولاهما: تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس اللاتينية من جهة، وثانيهما تغيير خريطة العلاقات السياسية لصالح القوى العربية الإسلامية من جهة ثانية فقد قتل ضرغام وشاور في خضم هذه الأحداث وصار أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد، وبعد موت أسد الدين سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م خلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي في الوزارة[1].

وفيما بعد أثبتت الأحداث أن صلاح الدين هو بطل الحقبة الحرجة في تاريخ المنطقة العربية آنذاك. وكانت وزارة

---

(١) عن مقتل ضرغام وشاور وتولي شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة للفاطميين. أنظر:
- أبو شامة: الروضتين ١/١٤٤ - ١٨٠
- ابن واصل: مفرج الكروب ١/١٦٥ وما بعدها.
- عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ٦٤ - ٧٤.

صلاح الدين في خدمة العاضد آخر الفاطميين بمثابة الفترة الإنتقالية لتألق نجمه، وكان فشل مشروع أملريك بشن حملة مشتركة مع البيزنطيين ضد مصر سنة ٦٦٥/١١٦٩م وحصارهم الفاشل لدمياط على مدى خمسين عاماً[1] بمثابة الإعلان عن أن القائد الشاب قد دعّم حكمه واطمأن إلى سلامة مركزه السياسي.

وفي هذه الأثناء كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الأرجاء فيها خمس عواصم هي: دمشق والرها وحلب والموصل ثم القاهرة. وأخذ نور الدين يلح على صلاح الدين لاتخاذ الخطوات الحاسمة بإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية. ولكن صلاح الدين تمهل حتى واتته الفرصة في أول يوم جمعة في سنة ١٠/٥٦٧ أيلول ١١٧١م أحل اسم الخليفة العباسي محل أسم الخليفة الفاطمي في الخطبة التي القيت في مسجد عمرو بن العاص. وكان الخليفة الفاطمي العاضد طريح الفراش، ثم مات بعد أسبوع دون أن يدري أن دولة آبائه قد دالت وأنه آخر الفاطميين[2].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠٥/٩ ـ ١٠٦
ـ أبو شامة: الروضتين ١٨٣/١.
ـ ابن واصل: مفرج الكروب ١٨٣/١.
(٢) أبو شامة: الروضتين ١٩٣/١ ـ ١٩٧

كان انفراد صلاح الدين الأيوبي بالسلطة في مصر مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ أن مصر بمواردها الهائلة جعلت قدرته لا حدود لها ثم جاءت وفاة نور الدين محمود في ١١ شوال ٥٦٩/١١٧٤. ثم موت عدوه اللدود أملريك ملك بيت المقدس في السنة نفسها، فرصة طيبة لكي يوحد الجبهة الإسلامية وليؤكد زعامته على العالم الإسلامي كانت الخطوة الضرورية لتأكيد زعامة صلاح الدين تتطلب منه أن يعالج في حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات[1]. وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين نفسه ملكاً على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسي سنة ٥٧٠/١١٧٥ م[2]. وقضى صلاح الدين

= - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١١/٩ - ١١٢.
- المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (تحقيق محمد حلمي محمد أحمد القاهرة ١٩٧٣) ج ٣ ص ٣٢٤ - ٣٣٤.

(١) كانت وفاة نور الدين محمود زنكي في ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ/١٥ أيار ١١٧٢ م. وتولى بعده ابنه الصالح إسماعيل وكان صبياً في الحادية عشرة من عمره، ثم بدأت أحداث الصراع تتوالى حتى تمكن صلاح الدين من لم الشمل قبل معركة حطين. وعن حوادث ما بين سنتي ٥٦٩ - ٥٨١هـ أنظر:
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٥٢/٩ - ١٧٢
- أبو شامة: الروضتين مواضع شتى.

(٢) في سنة ٥٧٠هـ كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد يعدّد

في مصر حوالي ست سنوات من ٥٧٢ ـ ٥٧٧هـ (١١٧٦ ـ ١١٨١م) لترتيب الأوضاع الداخلية في مصر والشام استعداداً للمواجهة مع الصليبيين.

وفي تلك الأثناء كانت سياسة صلاح الدين تقوم على أساس تجنب المواجهة على مستوى كبير مع الصليبيين. لقد تمكن صلاح الدين من بسط سلطانه على منطقة تمتد من النيل إلى الفرات، حافلة بإمكانات وموارد هائلة، غير المساعدات المتوقعة في حال نشوب المعركة ضد الصليبيين[1].

= فتوحاته وجهاده للفرنج وإعادته الخطبة العباسية بمصر و «طلب من الخليفة تقليده مصر واليمن والمغرب والشام وكل ما يفتحه بسيفه. فوافته بحماه رسل الخليفة المستضيء، بأمر الله، بالتشريف والاعلام السود وتوقيع بسلطته مصر والشام وغيرهما». وقد تكرر هذا الأمر كثيراً طوال محاولات صلاح الدين توحيد المنطقة تحت حكمه.

ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٥٩ ـ ٦٠

ـ أبو شامة: الروضتين ١/ ٢٤١.

(١) يتضح من الأحداث التي سبقت معركة حطين وحتى نهاية حياة صلاح الدين أنه كان يكتب إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد قبل كل معركة كبيرة» ويذكر أبو شامة عبارة هامة إذ يقول: «فقد أنفق المولى (يقصد صلاح الدين) مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل».

ـ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في صفحات شتى.

ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك /٩٢ـ٩٣ـ٩٥ـ٩٦ـ٩٩ـ١٠٢ـ ١٠٣.

ـ أبو شامة: الروضتين ٢/ ١٧٧.

وفي تلك الأثناء قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، بل أن قواتهم وصلت حتى بحيرات منطقة السويس، كما شنوا غارات على تيماء شمال شبه الجزيرة العربية وحاول رينالددي شاتيون أمير الكرك ويسميه العرب أرناط أن يقتحم البحر الأحمر ويحتل مكة والمدينة، وأن يتحكم في حركة التجارة الدولية المارة في هذا البحر. وهاجم بعض موانىء مصر والحجاز، ولكن الأسطول المصري سحق أسطوله تماماً[1].

وهكذا وجد صلاح الدين مبرراً قوياً لبدء عملياته ضد الصليبيين. وكانت قمة انتصاراته على زهرة جيوش الصليبيين عند قرون حطين في فلسطين يوم ٢٤ ربيع الثاني سنة ٥٨٢هـ الموافق ٤ تموز ١١٨٧م[2]. لقد فقدت المملكة اللاتينية في

---

(١) كان رينالد دي شاتيون أول من انتهك هدنة ١١٨٠م أنظر:
- أبو شامة: الروضتين ٢/ ٢٨ - ٣٧
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٥٢ - ١٥٣.
- رنسيمان: الحروب الصليبية ٢/ ٤٣١ - ٤٣٨.

(٢) عن حروب صلاح الدين قبل وبعد معركة حطين أنظر:
- أبو شامة: الروضتين ٢/ ٧٥ - ٨٥
- ابن شداد: النوادر السلطانية ٦٠ - ٧٣.
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ١٧ - ٤٥ وما بعدها.

القدس قواتها العسكرية الرئيسية في هذه المعركة. صحيح أن كوارث سابقة وقعت على الفرنج في المنطقة العربية إذ حدث من قبل أن قتل بعض امرائهم. كما وقع بعض ملوكهم وامرائهم في الأسر، ونالتهم هزائم عسكرية قاسية. ولكن ما حدث في حطين كان أخطر من ذلك بكثير. فقد تم تدمير أكبر جيش صليبي أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبي. كما أن المنتصر كان هو صلاح الدين الأيوبي صاحب السيادة على العالم الإسلامي بأسره.

وما حدث بعد حطين كان أشبه بنزهة عسكرية، إذ سارعت المدن والقلاع الصليبية إلى الاستسلام إما لصلاح الدين شخصياً وإما لقادة جيوشه. وتم أخذ عكا ويافا، وبيروت، و جبيل، ثم عسقلان وغزة[1]. وفي أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣/أيلول ١١٨٧م أتجه صلاح الدين صوب القدس. وبعد حصار قصير دخل صلاح الدين وقواته المدينة المقدسة في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/٢ تشرين الأول ١١٨٧م بصورة أنسانية تناقض وحشية الصليبيين حين غزوها قبل أكثر من ثمانين سنة. وأقيمت خطبة الجمعة في المدينة المحررة بعد أن ظلت ممنوعة طويلاً[2].

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/٨٥ ـ ٩٢.
(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/٩٦ وما بعدها

ولم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور، وأنطاكية، وطرابلس، وبعض القلاع والحصون المتناثرة على الأرض العربية في بلاد الشام.

وجاء رد الفعل الأوروبي عنيفاً، فقد مات البابا أربان الثالث (١١٨٥ ـ ١١٨٧م) من هول الصدمة حين بلغته الأنباء. ولأن الأنباء تنتشر بسرعة، فإن الرسل توجهوا إلى غرب أوروبا عقب هزيمة حطين لابلاغ امراء الغرب الأوربي بأنباء الكارثة. فقد ذهب كبير أساقفة صور في جولة قادته إلى بلاطات عدد من ملوك وأمراء الغرب لكي يستنهض هممهم وقام البابا غريغوري الثامن، الذي لم يستمر في كرسي البابوية سوى شهرين، بإرسال خطاب بابوي لكل «المؤمنين في الغرب» يذكرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين عاماً كان يجب أن يكون نذيراً لهم. كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا في حملة صليبية جديدة. وفرض صياماً في كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة والامتناع عن أكل اللحم في أيام السبت والأربعاء.

ومات الباب غريغوري الثامن في ١٧ كانون أول سنة *

* ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/١٨٢ ـ ١٨٦.
ـ ابن شداد: النوادر السلطانية ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

١١٨٧م. تاركاً لخليفته كليمنت الثالث (١١٨٧ ـ ١١٩١م) مهمة الإتصال بملوك المانيا، وفرنسا، وانكلترا، وتم فرض ضريبة مقدارها عشرة بالمئة على كل دخل، وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين»[1]. وأخذ شارة الصليب الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠م)، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا (١١٨٩ ـ ١١٩٩)، وفيليب اوغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ ـ ١١٢٣).

في ١١ آيار ١١٨٩ تحركت قوات الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا، قبل القوات الفرنسية والقوات الانكليزية. وسارت قوات الألمان عبر الطريق البري الذي سارت عليه من قبل قوات الحملة الأولى. ولكن الإمبراطور لقي حتفه في أحد أنهار آسيا الصغرى غريقاً في ١٠ حزيران سنة ١١٩٠ م. وكانت تلك خسارة فادحة لحقت بالجيش الصليبي قبل أن يصل إلى هدفه. وانتهى الأمر بالألمان إلى المشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة أما ريتشارد الأول قلب الأسد ملك انكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصلا بقواتهما إلى صقليه عن طريقين بحريين مختلفين حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠ ـ ١١٩١ في نزاع حول الأمور الداخلية في صقلية.

---

(١) رنسمان: الحروب الصليبية ٣/٤ ـ ٥.

ومع ذلك ابحر الاثنان تجاه فلسطين، حيث وصل الملك الفرنسي أولاً بسبب انشغال ريتشارد بالاستيلاء على قبرص من الحكم البيزنطي. وفي تلك الأثناء كان الناجون من سيوف صلاح الدين والمسلمين قد تجمعوا في مدينة صور التي رحبت بالمقاتلين منهم فقط. أما الملك غي دي لوزينيان، الذي أطلق صلاح الدين الأيوبي سراحه فقد عسكر بقواته الضئيلة في سهل عكا. ثم بدأت الجيوش والإمدادات الأوروبية تفد إلى الشام. وهكذا بدأت معارك الحملة الصليبية الثالثة[1].

لاتهمنا التفاصيل كثيراً، بيد أننا نود أن نشير إلى أن المعارك الأولى انتهت بسقوط عكا في أيدي صليبيي الحملة الثالثة[2]؛ وعاد فيليب أوغسطس إلى فرنسا، على حين بقي ريتشارد في بلاد الشام سنة كاملة. ثم اضطر إلى عقد صلح

---

(١) عن الحملة الصليبية الثالثة أنظر:
- رنسمان: الحروب الصليبية ٣/٣٤، وما يليها.
- أبو شامة: الروضتين ٢/١٤١ وما يليها.
- عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ١٥٦ ـ ١٥٨.

(٢) كان سقوط عكا في أيدي الصليبين يوم ١٧ جمادى الآخرة (تموز ١١٩١م).
- أبو شامة: الروضتين ٢/١٨٨
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٢١٤ ـ ٢١٥.

الرملة مع صلاح الدين سنة ٥٨٨/١١٩٢م الذي أبقى الوضع كما هو عليه[1].

وهكذا كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً بالقدر الذي خيّب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربي، وسرعان ما تحولت الآمال الكبار التي عقدت على هذه الحملة إلى احباط واتهامات متبادلة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد بقي شهوراً قليلة في بيت المقدس. ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربّه في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩/٤ آذار ١١٩٣[2]. وبوفاة صلاح الدين الأيوبي

---

(١) رنسيمان: الحروب الصليبية ٣/٧٢ - ٧٣.
- أبو شامة: الروضتين ٢/١٩٩ - ٢٠٤.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) عن حياة صلاح الدين وحياته أنظر:
- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين (تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٤).
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي (تحقيق محمد محمود صبح القاهرة ١٩٦٥).
- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين (طبعة دار الجيل - بيروت) ج١/١٦٤ - ٢٧٩، ٢/٢٤٥.
- المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج١/٤١ - ١١٤.

توارت عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء السمع والبصر والفؤاد. وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه. أعداء كانوا أم حلفاء. ولكن الظروف التي انجبته لقيادة الأمة الإسلامية كانت لا تزال قائمة. فالصليبيون ما زالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائماً. والاحياء الأيديولوجي والأخلاقي الذي كان بمثابة التعبئة المعنوية للعمليات العسكرية، كان لا يزال في طور النمو، ولا تزال قطوفه بعيدة المنال.

من الواضح أن وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي جاءت خسارة كبرى للجبهة الإسلامية المتحدة إذ كانت نذيراً بقيام المنازعات بين ورثته حول تقسيم التركة. وكان صلاح الدين، يدرك أن إدارة إمبراطورية واسعة، فيما بعد وفاته سوف يؤدي إلى نتائج خطيرة، فما من أبنائه الذين خلفهم من يملك من الخلال والمواهب ما يمكنه أن يفرض طاعته على سائر الأمراء الأيوبيين، فشخصية صلاح الدين ومهابته وحزمه، كانت كلها ضمانة لبقاء الدولة موحدة في غياب النظم الثابتة

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣٨١/٥ - ٣٨٩.

- ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب تحقيق جمال الدين الشيال دار القلم.

اللازمة للاضطلاع بالسلطة بعد وفاة القائد. حقاً كانت الخلافة نظاماً له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متوليها، إلاّ أن صلاح الدين لم يكن خليفة، وإنما فرض طاعته على المسلمين بقوة شخصيته. وقد افتقر ابناؤه إلى هذه الشخصية لذا حاول قبل وفاته أن ينظم دولته بنفسه، وأن يجعل امراءه وخاصته يقبلون حلّه.

بقي السلطان صلاح الدين أميناً لما كان معروفاً من قبله من التقاليد والأعراف. ولما استقر من النظم، وهي بمجملها تذهب إلى اعتبار الملك ارثا خاصاً يوزّع انصبة متساوية، أو غير متساوية بين أبناء البيت الحاكم. لذا حرص على أن تكون أهم أقاليم الدولة الأيوبية لابنائه دون سواهم من أقربائه. ففي عام ١١٨٤م، أعلنت في دمشق نصوص وصيته القاضية بأن تؤول مصر لابنه العزيز عثمان، وأن تكون الشام لابنه الآخر الأفضل علي ويكون له لقب السلطان. ونصّت الوصية أيضاً على أن يكون صاحب حماه تقي الدين عمر وصياً على العزيز، وأن يكون العادل أخو صلاح الدين، الذي أعطي حلب وصياً على الأفضل حتى يبلغا سن الرشد ويصبحا قادرين على تصريف الأمور. ثم أجرى تعديلاً أولاً على الوصية عام ١١٨٦م عملاً بنصيحة أحد المقربين من قادته، وهو الأمير سليمان بن جندر، أعيدت حلب بموجبه للظاهر

غازي ثالث أبناء صلاح الدين. وأرسل العادل إلى مصر ليكون بجانب العزيز عثمان أتابكاً له[1]. وبعد وفاة تقي الدين عمر، صاحب حماه عام ١١٩١م أجرى السلطان صلاح الدين تعديلاً ثانياً على وصيته، انتزع بموجبه من ابنه المنصور بن تقي الدين، وكان يكن له الكراهية، حران والرها وسميساط وميا فارقين وأعطاها لأخيه العادل، إضافة إلى ما بيده من بلاد وهي الكرك والشوبك والبلقاء وبعض جهات مصر[2].

وبوفاة صلاح الدين تقسّمت الإمبراطورية الأيوبية بين أبنائه وإخوته وكبار قادته. فاستقلّ الملك الأفضل علي بدمشق وما يتبعها، واحتفظ الملك العزيز عثمان بمصر وكان ينوب عن والده في حكمها، في حين أخذ الملك الظاهر غازي حلب وشمال الشام[3]. وأصبحت بصرى من نصيب الظافر خضر وهو أحد أبناء صلاح الدين. وأما الملك العادل. أخو السلطان صلاح الدين. فقد أخذ الكرك والشوبك فضلاً عن بلاد الجزيرة وديار بكر، وهي أملاك متناثرة لا إتصال بينها، كما لا تتناسب

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/١٧٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٣٧٥ - ٣٨٧.

- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣٠.

- الباز العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ١٠٦.

(٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

مع أهمية العادل الذي ستزداد مطامحه وضوحاً مع مضي الوقت[1]. كما ملك سيف الإسلام طغتكين، الأخ الآخر المتبقي على قيد الحياة للسلطان، اليمن وجزيرة العرب، وكان قد خلف أخاه تورانشاه عليها، وأخذ الأمجد بهرامشاه ابن أخ السلطان بعلبك. واستقل المجاهد شيركوه الثاني بن محمد بن شيركوه بحمص، أما حماه فكانت من نصيب المنصور بن تقي الدين عمر، كما حاز بعض القادة كثيراً من المدن والحصون[2] وعلى هذا النحو كان لا بد أن يظهر بعد وفاة السلطان صلاح الدين حرص أفراد أسرته على امتلاك البلاد ووصل أملاكهم المتناثرة. وقد طفح تاريخ الأيوبيين في هذه المرحلة بالمؤامرات والحروب الأهلية المنهكة بين أفراد الأسرة الأيوبية، كلٌّ يريد أن يتوسع على حساب الآخرين ما وسعه جهده، لكن من الغبن أن لا نرى في تاريخ الأيوبيين، في هذه الفترة، سوى المنازعات والخلافات الأسرية، فتاريخهم حفل أيضاً بالجهاد ضد الصليبيين مقتفين بذلك سيرة سلفهم السلطان صلاح الدين بيد أنهم، وبسبب تشتت

(1) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/٣٧٨ ـ ٣٧٩
ـ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٢/١١٢.
(2) ابن واصل: مفرج الكروب ٣/٤
ـ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٣/٨٧.

صفوفهم، لم يحسموا الأمر بوحدتهم. ولو توحدوا لعجلوا في إسدال الستار على آخر فصل من رواية الحروب الصليبية.
لكن التوتر الذي ساد العلاقات بين هؤلاء الورثة. كان نعمة على بقايا الوجود الصليبي الذي كان يشغل حيزاً ضيقاً من أرض فلسطين ولبنان، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا. وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية، التي أصبحت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت السنوات العشر، وهي فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المرعبة التي مرّت بهم. وكان واضحاً أن قوات الصليبيين في بلاد الشام لم تكن نداً للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة لنجدتهم.

ورغم أن السلطان العادل استطاع أن يفرض نوعاً من الوحدة على الأيوبيين في مصر والشام ولكن الطابع العام لسياسة الأيوبيين، بعد صلاح الدين، كان يميل إلى مهادنة الصليبيين، ويعني هذا في التحليل الأخير أنهم قد تخلوا عن دورهم التاريخي الذي هو مبرر استمرارهم حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية. ومن اللافت للنظر أن الدولة الأيوبية التي ظهرت على مسرح التاريخ مثلها مثل دولة آل زنكي، لأن مؤسسها صلاح الدين قد التزم بهذا الدور التاريخي، قد فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك وسلاطين بني أيوب يتخلفون

عن هذا الدور بشكل أو بآخر وعلى الرغم من جهود البعض منهم، كالعادل والكامل والصالح نجم الدين أيوب، العسكرية ضد الصليبيين فإن سقوطها في مصر أولاً، ثم في بلاد الشام، جاء نتيجة بروز قوة بديلة أثبتت أنها أقدر على القيام بالدور التاريخي للدولة العسكرية التي يقودها ملك محارب. وكان المماليك هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة. ونتيجة نجاحهم فيما فشل به الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية في مواجهة الصليبيين.



الفصل الثالث

دراسة تحليلية لكتاب الروضتين في أخبار الدولتين

١ ـ مخطوطات كتاب الروضتين في أخبار الدولتين.

يمكن تصنيف مخطوطات كتاب الروضتين الموجودة في مكتبات عديدة من العالم إلى المجموعات الآتية[1]:

المجموعة الأولى: مخطوطات كاملة للجزءين معاً وتوجد في:

---

(١) اعتمدنا في وصف المخطوطات على المقدمة التي كتبها الدكتور محمد حلمي محمد أحمد للجزء الأول من كتاب الروضتين (القسم الأول) انظر.

ـ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي الجزء السادس ص ١٤ ـ ١٧. نقله إلى العربية الدكتور يعقوب السيد بكر وراجع ترجمته الدكتور رمضان عبد التواب. صدر عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

ـ محمد حلمي محمد أحمد: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية نشر وتحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد الجزء الأول ـ القسم الأول صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٦م، والجزء الأول ـ القسم الثاني صدر في سلسلة تراثنا عن المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٦٢، وراجعه الدكتور محمد مصطفى زياده.

١ ـ مكتبة البودليان باوكسفورد: وهي في مجلد واحد يشمل الجزءين معاً دون فاصل ورقمها Brucc 63/ وتاريخ الفراغ من كتابتها سنة ألف وخمسة للهجرة.

٢ ـ المكتبة الأهلية بباريس: وتقع في مجلد واحد يشمل الجزءين معاً مع الفصل بينهما بورقة فاصلة، ومع الإشارة في آخر الجزء الأول (١٤٨ب) إلى نهايته بالعبارة الآتية: «آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف». وينتهي الجزء الثاني بصفحة (٢٩٤ب) بعد عبارات متعددة: «........ ووافق فراغه في اليوم السابع من جمادى الأولى سنة ألف ومائة وعشرون من الهجرة» ورقم هذه المخطوطة Arabe 1700.

٣ ـ مكتبة أيا صوفيا باسطمبول في مجلدين، أولهما برقم: ٣٢١٤، وثانيهما برقم ٣٢١٤. ويرجح كلود كاهن أنهما يرجعان إلى القرن السابع أو الثامن الهجري.

المجموعة الثانية: مخطوطات للجزء الأول فقط وتوجد في:

١ ـ كوبنهاغن ورقمها: Arab CL IV وقد نسخت بعد وفاة المؤلف بأحد عشر عاماً أي سنة ٦٧٦هـ.

٢ ـ مكتبة ليدن ورقمها: Cod 77 jol وتاريخ نسخها سنة ٧٣٣هـ.

٣ ـ مكتبة القاهرة: رقمها ١٠٨ تاريخ (ج ١). وهي منسوخة سنة سبعمائة وأربع وثلاثين وقد قام بنسخها نفس الكاتب الذي نسخ مخطوطة ليدن، عن نفس الأصل بعد فراغه من نسخة ليدن.

٤ ـ بودليان باوكسفورد: ورقمها Clark 7 وترجع إلى القرن السابع أو الثامن الهجري.

المجموعة الثالثة: مخطوطات للجزء الثاني فقط وتوجد في:

١ ـ بودليان باكسفورد ورقمها: Msrsh 383 وتاريخ نسخها سنة ستماية وثمان وسبعين.

٢ ـ برلين ورقمها: ٩٨١٢ ـ وتاريخ نسخها سنة تسعماية وثمان وثلاثين.

٣ ـ القاهرة: ورقمها ١٠٨ تاريخ (ج ٢) وقد تم نسخها سنة ألف ومائة وثلاث وعشرين.

المجموعة الرابعة: مخطوطات غير كاملة للكتاب وتوجد في:

١ ـ كوبنهاغن ورقمها: ClarkCL IV وتبدأ بالحديث عن سنة

٥٧٧هـ وتنتهي بنهاية الكتاب وترجع في تاريخها إلى القرن السابع أو الثامن الهجري.

٢ - المكتبة الأهلية بباريس، ورقمها: Arabe 1701 ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجري. وتشمل الجزء الأول من الكتاب وبعض الجزء الثاني حتى سنة ٥٧٨هـ.

٣ - برلين ورقمها ١٣ ر ٣٣٥٠ وتقع في سبع عشرة ورقة فقط ضمن مجموعة منوعة تحمل العنوان التالي: «مجموع عجيب وكتاب غريب فيه فوائد لا تحصى ومهمات يجب أن تستعصى» ولا يعلم بالضبط تاريخ نسخها وإن كان ناسخها قد ولد سنة ٨١٦ وتوفي سنة ٨٨٠هـ.

٤ - اسطنبول بمكتبة Koratehabizzad برقم ٢٨٠ وتنتهي عند الحديث عن حوادث سنة ٥٦٩هـ. وتاريخها يرجع إلى القرن التاسع.

٥ - المكتبة الأهلية بباريس، ورقمها Arabe 5882 وتنتهي في أثناء الحديث عن حوادث ٥٧٧هـ بعبارة تدل على أن لها جزءاً ثانياً إذ جاء في آخرها. «هذا ما يسره الله تعالى من كتابة هذا الجزء، يتلوه الجزء الثاني، فصل في ذكره وفاة الملك الصالح إسماعيل». وقد جاء في دليل

المخطوطات للمكتبة الأهلية أن هذه المخطوطة قد كتبت بخط القرن السادس عشر الميلادي (أي العاشر الهجري). ويبدو لمحقق الجزء الأول الدكتور محمد حلمي محمد أحمد أنها أحدث تاريخاً من هذا لأن خطها دقيق وقد راعى ناسخها الدقة في التنظيم واختار المداد الأسود لكتابة المتن وإن استعمل المداد الأحمر في مناسبات خاصة. هذا إلى أن نوع الورق لا يرجح نسبتها إلى القرن السادس عشر الميلادي.

٦ ـ المتحف البريطاني بلندن، ورقمها add 24, 015 وقد كتبت سنة ١٠٧٤ م وتشمل بعض الجزء الثاني، إذ تبدأ عند سنة ٥٧٧، وتنتهي بنهاية الكتاب.

٧ ـ برلين، ورقمها ٩٩٧٨، وهي مجرد مقتبسات عن حياة السلطان نور الدين محمود ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١٢٠٨هـ.

٨ ـ فيينا ورقمها: Arabish 898 وتشمل بعض الجزء الأول فقط إذ تنتهي عند سنة ٥٤٥هـ.

٩ ـ المتحف البريطاني بلندن. وتبدأ بالحديث عن سنة ٥٦٩. وتنتهي بنهاية الكتاب سنة ٥٨٠؛ فهي تشمل بعضاً من كل من الجزئين الأول والثاني للكتاب. وذلك رغم ما جاء على

صفحة الغلاف مما يشير إلى أن هذا المجلد يشمل «الجزء الثاني من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» وهذا المجلد يشمل نوعين من الورق والخط، فهما ليسا لناسخ واحد، ويبدو أن أقدم النوعين يرجع في تاريخه إلى القرن الثامن، ذلك أنه يشبه في خطه ونظامه وطريقته مخطوطتي ليدن والقاهرة. ورقم المخطوطة Add 7312 Rich .

١٠ ـ مكتبة ميونخ، ورقمها: ٤٠٤، ويبدو أن تاريخ نسخها يرجع إلى القرن السابع عشر الميلادي.

ويذكر الدكتور محمد حلمي محمد أحمد أنه عمد إلى تحقيق الجزء الأول من الروضتين معتمداً على نسختين رئيسيتين جعلت إحداهما أصلاً للنشر، وجعلت الثانية في موقف النسخة المساعدة. أما النسخة الأولى فهي نسخة كوبنهاغن ورقمهاArab CL IV وقد رمز إليها بالحرف ك. وأما النسخة المساعدة الرئيسية فهي نسخة القاهرة ورقمها ١٠٨ تاريخ وقد رمز إليها بالحرف ق. وهناك نسخة أخرى لجأ إليها بين الحين والآخر للإستعانة بها في ضبط أو تصحيح، وهي نسخة بودليان ورقمها Bruce 63 إلّا أن اعتماده على هذه النسخة الأخيرة لم يكن اعتماداً كبيراً، فاكتفى بالإشارة إليها في التعليقات، عند الحاجة إلى ذلك برقمها دون أن يختار لها رمزاً خاصاً.

ويذكر المحقق أن اختياره لهذه المخطوطات، مع وجود مخطوطات أخرى لم يكن وليد الصدفة وإنما كان نتيجة لدراسة قام بها لجميع المخطوطات التي استطاع الإطلاع عليها إطلاعاً ناقداً فاحصاً، دون أن يفوته في هذه الدراسة النقدية أن يطلع على النسخ الناقصة، التي توصل إليها أيضاً، حتى يقدر قيمتها في الأجزاء التي تشترك فيها مع المخطوطات الكاملة. وقد جعل مخطوطة كوبنهاغن أصلاً لأنها أقرب عهداً إلى عصر المؤلف. وذلك أن أبا شامة توفي سنة ٦٦٥هـ. وقد فرغ كاتب هذه النسخة منها في سنة ٦٧٦هـ كما جاء في نهاية الجزء الأول من هذه المخطوطة في الصفحة (٢١٨ب): «ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ٦٧٦هـ، غفر الله تعالى لمؤلفه وكاتبه وصاحبه والمنتفع به والمطلع عليه وجميع المسلمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين».

ويقوي جانب هذه النسخة أيضاً أنها نقلت من نسخة كتبها المؤلف بنفسه نقلاً مباشراً. ويدل على هذا عبارة أخرى جاءت في الصفحة الأخيرة أيضاً ونصها:

«آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى يتلوه انشاء الله في الجزء الثاني: ثم

دخلت سنة أربع وسبعين وخمسماية. قال العماد وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء».

وبمقارنة هذه النسخة بالنسخ الأخرى، وبخاصة نسختي ليدن والقاهرة وهما منقولتان عن أصل منقول بدوره عن نسخة المؤلف، ينتهي المحقق إلى الثقة بصحة هذين النصين. وإلى الاطمئنان إلى سلامة النقل عن نسخة المؤلف. ويؤكد هذا نوع الورق وطريقة الكتابة وقلة الأخطاء التي شابت هذه المخطوطة.

ولما كانت نسخة القاهرة برأي المحقق مخطوطة ليدن في كل تفصيلاتها مع أنها تسبق أختها القاهرية بسنة. لذا اعتمد على نسخة القاهرة لتكون نسخة مساعدة لمخطوطة كوبنهاغن في نشر الجزء الأول. وقد جاء في أخر صفحة بها (٢٢٥أ) العبارة الآتية: شاهدت على نسخة الأصل المنقول منه هذه النسخة وهي جميعها بخط قاضي القضاة نجم الدين ابن صصري الشافعي، رحمه الله، ما صورته، يقول:

شاهدت على آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه هذه النسخة بخط المؤلف: آخر المجلدة الأولى من كتاب الروضتين. فرغ منها مصنفها نسخاً في حادي عشر شهر رمضان المبارك سنة إحدى وخمسين وستمائه، واشتملت هذه النسخة المبيضة على زيادات كثيرة فاتت النسخ المتقدمة على

هذا التاريخ، المنقولة من المسودة. وكل ما ينقل من هذه النسخة هو الأصل الذي يعتمد عليه ويركن إليه، وكتبه عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي مصنفه، عفا الله عنه.

فهي إذاً منقولة عن نسخة نقلت عن خط المؤلف نفسه وقد اعتبر المؤلف نسخته هذه: «الأصل الذي يعتمد عليه ويركن إليه». وذلك قبل وفاته بنحو خمس عشرة سنة وهذه المدة الطويلة لم تغير رأي المؤلف في اعتبار نسخته هذه الأصل الذى يعتمد عليه كما يدلنا على ذلك عبارة أخرى وردت أيضاً في آخر مخطوطة القاهرة بعد النص السابق وهي: «وشاهدت عليه (أي على الأصل الذي كتبه ابن صصري) ما صورته مختصراً: سمع جميع هذ المجلد على مؤلفه الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي ولده محي الدين أبو الهدى أحمد، وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن خرج الأشبيلي، وزين الدين علي بن أحمد بن يوسف القرطبي، وشمس الدين إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم المالكي، وابنه محمد، وعفيف الدين محمد بن أبي بكر بن إبراهيم المؤذن الشاغوري، ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الكبخي وسمع آخرون بفوات عينوا في الأصل، وصح ذلك بقراء يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي في مجالس

آخرها ثامن محرم سنة أربع وستين وستمائة بـدار الحديث الأشرفية، كتبه قارئه يوسف بن محمد حامداً الله مصلياً على نبيه محمد ومسلّماً، نقل ذلك كله مختصراً أحمد بن صصري التغلبي الشافعي غفر الله له».

وبهذا يمكن القول أن أبا شامة جعل نسخته هذه، التي نقلت عنها نسخة ابن صصري، الأصل الذي يعتمد عليه، وذلك سنة ٦٥١هـ. ثم أكد هذا بالسماع الذي سجله عليها سنة ٦٥٥ ثم بالمطالعة التي حضرها طائفة من العلماء وفيهم ولده أحمد سنة ٦٦٤ قبل وفاته بسنتين.

وقـد ظهرت المحاولة الأولى لنشر الروضتين في سنة ١٨٧٩ باللغة الألمانية لبعض الجزء الثاني منه وأوضح المترجم Goergens أنه لا يهتم إلاّ باختيار المادة العلمية التي لها صلة بتاريخ الحروب الصليبية ثم ظهرت بعد ذلك محاولة أخـرى لترجمة جزء كبير من الروضتين إلى الفرنسية مع ما يقابلها من النص العربي في .Recueil des Historiens des Croisades Historiens orientaux tom IV . وقد حذفت من هذه النشرة مقتبسات أبي شامة في الروضتين من كتـاب الأتابكـة لابن الأثير، وكتاب النوادر السلطانية اللذين نشـرا في جزء مستقل من نفس المجموعة.

وفي القاهرة ظهرت نشرة كاملة للكتاب في جزئين،

مأخوذة من مخطوطة القاهرة دون تحقيق سنة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨ ـ ١٢٩١هـ وكذلك نشرته كاملاً دار الجيل في بيروت دون تحقيق أيضاً ودون ذكر تاريخ الطبع.

٢ ـ مضمون كتاب الروضتين.

إذا استعرضنا ترجمة أبي شامة في كتب الطبقات(١)، وجدنا المترجمين معاً يقدمونه إلى القراء مستهلين حديثهم بأنه «العلّامة ذو الفنون........ الشافعي المقرىء النحوي» الذي «كان فقيهاً محدثاً مقرئاً نحوياً»؛ وبأنه «أتقن الفقه وبرع في العربية حتى بلغ رتبة الاجتهاد»، «وكان يكتب الخط المليح المتقن»؛ «وله نظْم متوسط كثير». ولكننا لا نجد بين هذه العبارات التمهيدية التي يقدم بها المترجمون حديثهم عن أبي شامة ما يدل على نشاطه في دراسة التاريخ والتأليف فيه؛ وإنما يجيء الكلام عن هذه النقطة عرضاً بعد ذلك عند تعداد مؤلفاته.

ويشعرنا أبو شامة نفسه، في مقدمة كتاب الروضتين،

(١) تقي الدين السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٦١/٥.
ـ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ١/ ٢٦٥ ـ ٢٧١
ـ ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٥٠
ـ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣١٨/٥.

بأن اهتمامه بالتاريخ لم يبدأ إلّا في مرحلة متأخرة من مراحل ثقافته؛ فهو يقول: «........ أما بعد؛ فإنه بعد أن صرفت جل عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عنّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سنة العلم وفرضه، اقتداء بسيرة من مضى، من كل عالم مرتضى»[1] فهو لم يهتم بالتاريخ إلّا بعد أن برع في الدراسات الشرعيه والأدبية، وهو لم يقدم على هذه الدراسة إلّا اقتداء بسيرة من مضى من العلماء المبرزين، الذين أخذوا من كل علم بنصيب، ومتأثراً في ذلك بالنهج العام الذي تميزت به الحياة العلمية في هذا العصر. ليحوز سنّة العلم بعد أن حاز فرضه. ولا يكتفي أبو شامة بهذا الشرح لتبرير موقفه من دراسة التاريخ، بل يحاول تبرير اهتمامه به في هذه المرحلة المتأخرة تبريراً. فيقول: «ففي كتاب الله وسنة رسوله حديث الأمم الخالية» والإمام الشافعي درس «أيام الناس والأدب عشرين سنة» ولم يرد الشافعي بهذا «إلّا الاستعانة على الفقه»[2].

ويبدو من هذا كله أن أبا شامة لم يرد بدراسته للتاريخ أن

---

(١) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١ / ٢.

(٢) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.

تشغل كل وقته، وإنما أراد أن يستعين منها بما يكمل ثقافته ويمكّن للدراسات الرئيسية التي يهتم بها، وهي الدراسات الشرعية واللغوية. وبرغم هذا نجد أبا شامة يدين بكثير مما اشتهر به في ميدان المعرفة إلى مؤلفاته التاريخية.

ومن بين هذه الكتب التاريخية يظفر كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ويقصد دولة نور الدين وصلاح الدين، في الحياة العلمية الحديثة. بمكانة عظيمة تضعه في مقدمة المصادر التي يرجع إليها الباحثون في مرحلة هامة من مراحل تاريخ العصور الوسطى الإسلامية، وهي مرحلة النزاع الذي اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية[1].

ومع أن أبا شامة، في واقع الأمر، لم يكتب في الروضتين شيئاً من عنده، سوى بعض الأسطر والتعليقات الصغيرة بين المقتطفات المقتبسة، إلّا أنه استطاع في مهارة بارعة جداً أن يؤلف كتاباً متوازناً، كاملاً، شاملاً في تاريخ

---

(١) يذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة أن لكتاب الروضتين ما لكتاب سيرة ابن هشام من القدرة العجيبة على الإيحاء بحيث أن أحداً لا يقرأه حتى يحس في قرارة نفسه ميلاً قوياً للتأليف في سيرة نور الدين وصلاح الدين وأن قراءته لهذا الكتاب هي التي أوحت إليه بتصنيف كتابه «صلاح الدين».
ـ عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي ص ٢٩٥.

الفترة الممتدة بين مطلع العهد النوري حوالي سنة ٥٤٠هـ، إلى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ، وذلك عن طريق جمع مقتطفات حسنة الاختيار، محبوكة الرصف بعضها وراء بعض، اقتطفها من مختلف المصادر المعاصرة بمنتهى الذكاء والدقة[1]. وهكذا جاء الكتاب مجموعة من حوالي تسعماية وإحدى ستون قطعة مقتبسة أخذت عن اثنين وعشرين مصدراً وبعض المصادر التي اعتمدها أبو شامة ضائعة، وهذا ما أعطى كتابه قيمة هامة، كما أنه أكثر من الاعتماد على الوثائق يأتي بها في مواضعها لتوثيق تاريخه، وهذا ما أعطى كتابه قيمة أخرى. وإذا كانت بعض المقتبسات قد لا تزيد على سطر أو سطرين. وبعضها يمتد صفحات تصل أحياناً إلى سبع وعشرين صفحة، فان أبا شامة فيما بين هذه وتلك واضح الشخصية والوجود رغم هذه المقتبسات ينقد ويناقش ويضيف ويوضح في إيجاز ودقة واستشهاد بما شاهد أو عرف أو سمع، أو باللجوء إلى المنطق. وهذا بدوره مما ميّز الكتاب وزاد في قيمته كمصدر موثوق. وقد أضاف أبو شامة بنفسه على كتابه ذيلاً هو «مذيّل كتاب الروضتين» حيث وصل بالحوادث ما بين سنة ٥٩٠هـ إلى تاريخ وفاته سنة ٦٦٥هـ. وقد أكثر فيه من التراجم، ولكنه ذكر

(١) شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٢/٢٦٧.

أحداث تلك الفترة الكثيرة القلق والإضطراب في حدود ما عرف وشاهد، سنة بعد سنة، لكن المذيّل أقل أهمية وقيمة تاريخية من الروضتين.

ويدل عنوان «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» على أنه يتعرض بموضوعه لزمن محدود بعصري نور الدين وصلاح الدين ولأمكنة محدودة بدولتي هذين السلطانين ومنطقة نفوذهما فما الذي حدا بأبي شامة إلى اختيار هذه الفترة لتكون موضوع كتابه؟

قد يفيدنا في الإجابة على هذا التساؤل أن نتبين الملامح الخاصة للتأليف التاريخي في الشام بين القرنين الثالث والسابع الهجريين، حيث ولد أبو شامة وعاش، كما ضمت تربتها رفاته، وحيث في مدارسها تعلّم وعلّم، وعن شيوخها وأعلامها أخذ واقتبس، وإلى مدرستها التاريخية انتمى [1].

والأصول الأولى للمدرسة الشامية أموية، وقد ساهمت في نشأة التدوين التاريخي في الإسلام بشكل فعال، فلما كان العصر العباسي. انتقل مركز الدولة الإسلامية من الشام إلى

---

(١) عن المدرسة الشامية ومساهمتها في نشأة التدوين التاريخي في الإسلام وسماتها وأعلامها.

ـ شاكر مصطفى: مرجع مذكور سابقاً ص ٢١٧ ـ ٣٠٤.

العراق. وتحديداً من دمشق إلى بغداد، الأمر الذي سلب هذه المدرسة كثيراً من الديناميكية التي تتمتع بها العواصم، ومن الإمكانيات المادية ومن الرفد الخارجي الذي يزيد في غناها الفكري، ودفعها للعيش على هامش الحياة السياسية والحضارية الموّارة في بغداد إلاّ أن هذا التهميش لم يلغ هذه المدرسة، فقصارى ما نجم عنه أنه منعها فترة طويلة من أن تطلع مؤرخين كباراً أو انتاجاً غزيراً غنياً في كميته ونوعيته إلاّ في نهاية هذه الفترة.

وعلى هذا، فسوف لن نلتقي في الواقع إلا مجموعات من الإسماء الصغيرة، طوال فترة تزيد على ثلاثة قرون، قبل أن يظهر المؤرخون الكبار في الشام. وهذه القرون الثلاثة نفسها هي الفارق الزمني في التخلف التاريخي، في المنظور والشمولية، لمدرسة الشام عن مدرسة العراق. وبينما كان منظور المؤرخين في العراق، منظوراً عالمياً بين الصفة العالمية التي كانت تتمتع بها بغداد، ومن ورائها العراق. لذا كان انتاجها، بالضرورة، شاملاً لأمور وأحداث وتراجم من كل قطر وتهم كل قطر، نجد الصفة الإقليمية المحدودة تغلب على انتاج المدارس الإقليمية، ومنها بلاد الشام، حيث نراها بأرضها ألصق وبرجالها وأحداثها أكثر اهتماماً.

وملاحظتنا هذه حول الإنتاج التاريخي ببلاد الشام. لا

تمس النهج والأسلوب والأنواع التاريخية التي أضحت مألوفة، متشابهة في العالم الإسلامي كله والذي انتظمته وحدة المصير والتاريخ والفكر نتيجة ارتباطه بالخلافة العباسية السنيّة، وهو ارتباط سياسي وديني انعكس بوضوح في التدوين التاريخي، وكان يتمثل سياسياً في الخطبة لخليفة بغداد والتماس شرعية الحكم منه كما تمثل دينياً في المذهب السني الذي كان ينتسب إليه الناس عامة، وكان بالتالي مذهب معظم المؤرخين باستثناء بعضهم. لكن ملاحظتنا تنصب على المسيرة العامة للعمل التاريخي، سعة وعمقاً وفروعاً، كمثل ضخامة الأعمال التاريخية، وإلحاح مدرسة على بعض المواضيع دون الأخرى، وكثرة عدد المؤرخين أو قلتهم، وتوزعهم الجغرافي والزمني، في هذا الصدد نلاحظ أن مدرسة الشام كانت موزعة النشاط بين عدد من المدن، وإن استأثرت دمشق وحلب بالنصيب الأوفى منها ومن رجالها.

السمة الثانية: هي أن أكثرية المؤرخين في بلاد الشام كانوا من المحدثين والفقهاء، يليهم من حيث العدد الموظفون من الكتاب والقضاة خاصة، كما كان من بين المؤرخين ملوك ووزراء وأشراف وتجار وأطباء، وأخرون أهمل ذكر مواقعهم في الحياة فلا نعرف إلّا أسماءهم المجردة والشام في كل هذا منسجمة تمام الإنسجام مع واقع الحياة الفكرية الإسلامية من

جهة. وواقع المدارس التاريخية الأخرى من جهة أخرى، فقد ندر جداً أن اختص عالم بعلم واحد دون أن يشارك في علوم أخرى. أما المشاريع التاريخية لهؤلاء المؤرخين فكانت بوجه عام صغيرة، محدودة المدى الزمني والمكاني على السواء. وبالتالي لم يكن لمعظمهم من الطموح التاريخي الأوسع ما يجعله يقفز إلى ما قبل زمن هذه المشاريع. أو لما وراء أقليمه، فهي بين سيرة رجل أو دولة، أو تعليق تاريخي أو ذكر فضيلة موقع أو مناقب رجل. أو التأريخ لمدينة أو أسرة، وعلينا أن ننتظر ما بين أواسط القرن السادس وأواسط القرن السابع الهجريين (أواسط القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) لنلتقي بالمشاريع التاريخية الكبرى وأصحابها، لنجد مثلاً ابن عساكر، ومجلداته الثمانين عن تاريخ دمشق، وياقوت بمعجميه المشهورين (معجم البلدان ومعجم الأدباء) وتاريخيه الضخمين الضائعين وسبط ابن الجوزي بتاريخه ذي العشرين مجلداً، وابن العديم بتاريخه ذي المجلدات الأربعين بعنوان بغية الطلب في تاريخ حلب، في هذه الفترة إذن ظهرت المشاريع التاريخية في دمشق وحلب لمنافسة تاريخ الطبري أو ابن الأثير بتاريخ كامل مماثل، وظهرت المعاجم التاريخية الكبرى، ليشكل كل أولئك قفزة نوعية في طموح المؤرخين الشاميين والجانب الأكبر من الأسباب إنما

يرجع إلى عودة الحياة السياسية إلى بلاد الشام وظهور سلطات فيها تستقطب اهتمام الناس وتجتذبُ إعجابهم.

تبقى ميزة أخرى تفردت بها المدرسة الشامية وتتمثل في تصدر كتب الفضائل قائمة المؤلفات التاريخية وخاصة فضائل المدن، وعلى الأخص دمشق والقدس ومكة والمدينة والخليل وعسقلان، وأخرى في فضائل الجهاد، والتأليف في فضائل الجهاد يجد تفسيره في وجود الصليبيين العدواني في الشام، وكذلك ينبع التأليف في فضائل المدن من المنبع نفسه. وقد كانت هذه الكتب في أول الأمر رد فعل على المآسي والآلام التي لحقت ببلاد الشام منذ أوائل العصر العباسي، كما كانت رداً على الكوارث والفتن وظلم الحكام ونكبات الغزوات البدوية المتمادية. ولقد ظهرت كتب الفضائل بالفعل لتدافع عن الإستيطان في هذه المراكز ولتدافع في الوقت نفسه عنها بإضفاء حالة من القداسة عليها لعل وعسى ذلك يرد العدوان عنها، وقد ظهرت هذه الكتب منذ أوائل القرن الرابع الهجري بالنسبة إلى دمشق وهي بالنسبة للقدس أقدم، لِقدَم قدسيتها في النفوس. ثم لما جاء العدوان الصليبي وكبر على المسلمين ضياع القدس من بين أيديهم، كان من أهداف المقاومة والجهاد إبراز قدسية هذا البلد ومكانته وفضله في مؤلفات متداولة، وبالمقارنة فإن دمشق التي قاومت الصليبيين وهزمتهم

عند أسوارها في الحملة الثانية. ثم أصبحت مركزاً لنور الدين وصلاح الدين اللذين تزعما حركة الجهاد الإسلامي، بعد أن تخلّت دولتي الخلافة في بغداد والقاهرة عن دوريهما[1]. مما أبرز الدور الضخم الذي توجب على مدن الشام (دمشق وحلب) أن تلعبه ضد التحدي الصليبي العنيف في تلك الأوقات، فاضحت مركز الاستقطاب السياسي والإقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، تشعر بارتباط العالم الإسلامي بها وارتباطها به من خلال تلك الحروب ومن اتصالها بالماضي الإسلامي كله في الوقت الذي تدافع عن حاضره. وأصبحت سمعة وسيرة نور الدين وصلاح الدين من بعده تجذب العلماء ودولتهما التي جمعت الشام ومصر أضحت تمثّل بالنسبة للمسلمين نوعاً من اليقظة الإسلامية الشاملة، كما تدفع العلماء والمؤرخين في الاتجاه نفسه للأمل في مجد إسلامي أكبر.

مما تقدم نستطيع أن نفهم بواعث أبي شامة في الاهتمام بنور الدين وصلاح الدين واقتصاره على الفترة التي حكما فيها. وفعلاً تدل حوادث التاريخ على أن عوامل الضعف بدأت تدب

(١) يذهب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مذهباً مخالفاً أنظر:

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى عن جامعة بيروت العربية سنة ١٩٧٧ ص ٥٥ ـ ٨٥ و ١٦٥ وما بعدها.

في الدولة التي ناضلا كي تكون موحدة قوية الجانب. إذ تحولت جهود خلفائهما من بعدهما إلى كسب انتصارات محلية ينتزعون بها بعض الإمارات والبلاد أو القرى من بعضهم البعض. وبذلك انفرط العقد الذي نجحا، بجهودهما المتواصلة، في نظمه حول راية واحدة، وتفككت وحدة الدولة التي جاهدا حتى جعلا علمها يرفرف في قوة وثبات على ربوع الجزيرة العراقية والشام ومصر واليمن والحجاز[1].

(١) عن الفترة التي اعقبت موت صلاح الدين واقتسام دولته بين أبنائه وأخوته وقادته:

- أبو شامة: الروضتين ٢/٢٢٢ وما يليها
- ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٣٧٥ - ٣٨٧.
- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١/٢١٣
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/٣٠.
- العماد الأصفهاني: الفتح القسي ٣٥٨ - ٣٥٩
- ابن العريني: مصر في عصر الأيوبيين ص ١٠٦.

كان الإمبراطور فردريك الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠) صقلياً تربى في ظل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي كان يكن لها كل تقدير، كما كان واسع العلم غزير المعرفة، قدم إلى الشرق بعد مراسلات مع السلطان الكامل بجيش قوامه ستمائه فارس فقط. وعقدت هدنة بين الرجلين على أساس أن يتسلم فردريك بيت المقدس وشريطاً من الأرض يصل بين عكا والقدس ويبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية بيد المسلمين وفي المقابل يتعهد بمنع أي حملة صليبية طوال العشرة سنوات من أوروبا، دعت البابوية إلى شن حملة صليبية ضد فردريك ووقعت به عقوبة الحرمان أما في الشرق فقد كان رد الفعل الشعبي عنيفاً ضد الكامل.

حقيقة استطاع بعض الأمراء الأيوبيين أن يجمع غالبية الصفوف ويوحد معظم القوى في هذه الدولة، ونعني بهذا البعض الملك العادل سيف الدين، وابنه الملك الكامل لكن الوسائل التي استخدماها لتحقيق هذه الوحدة لم تكن خالية من المآخذ والشوائب. فلكي يستطيع الملك العادل توحيد القوى تحت رايته، عمد إلى سياسة فرق تسد وإلى إذكاء نار الفتنة بين أبناء أخيه صلاح الدين الثلاثة وهم: العزيز صاحب مصر، والأفضل صاحب دمشق، والظاهر صاحب حلب، حتى يتمكن من استغلال الإضطراب والقلق لتحقيق مطمعه، ولكي يتمكن الكامل من تجميع الصفوف حول عرشه، اضطر إلى مواجهة جميع الأمراء الأيوبيين الذين اتحدوا ضده ليحدوا من جبروته، كما تحالف في مناسبة أخرى مع فردريك ملك الفرنجة وسلمه بيت المقدس سنة ٦٢٦هـ دون قتال حتى يستطيع التفرغ لحصار دمشق، وطرد الملك الناصر الأيوبي منها وضمها إلى منطقة نفوذه، وبهذا لا يمكن أن نقول بأن عصر هذين السلطانين، العادل والكامل، كان امتداداً لعصري نور الدين وصلاح الدين اللذين جاهدا لتحقيق وحدة هدفها

= ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٧٨/٩

ـ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢٢٨/١ ـ ٢٣٢.

ـ رنسيمان: الحروب الصليبية ٢١١/٣ ـ ٢١٨.

المصلحة العامة لا المطامع الشخصية، ووسيلتها تأييد الرأي العام لا التحالف مع الفرنجة أو إثارة الفتن والإضطرابات.

وفي هذا الجو المشبع بالقلاقل والإنقسامات والحروب التي اصطلى بنارها الإخوة والأقربون، ولد أبو شامة سنة ٥٩٩هـ، أي بعد وفاة صلاح الدين بعشر سنين وشب واكتهل فتألم لما كان يجري، وفي أثناء دراسته للتاريخ استرعى انتباهه وملك عاطفته تلك الجهود العظيمة التي قام بها نور الدين وصلاح الدين لتخليص البلاد من الذلة التي شملتها والفوضى التي عمتها وقارن ذلك بالظروف التي تمر بها البلاد كما رآها وشهدها في وقت كان فيه العالم الإسلامي في أمس الحاجة إلى الوحدة والتكاتف لرد العدوان الصليبي المتمادي، «فعزم وعلى إفراد ذكر دولتيهما (دولتي نور الدين وصلاح الدين) بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك»[١].

ولكي نعرف إلى أي حد نجح أبو شامة في تحقيق غرضه من تأليف هذا الكتاب، وفي عرض صورة صادقة لعصري نور الدين وصلاح الدين، يحسن أن بنا أن نستعرض الموضوعات التي تحدث عنها أو تطرق لها.

(١) أبو شامة: الروضتين ١/٤.

كانت البلاد الشامية قد سارت شوطاً كبيراً في طريق التكتل والوحدة بفضل الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي بن آق سنقر منذ تولى إمارة الموصل سنة ٥٣١هـ. فلما توفي وهو يحاصر قلعة جعبر خلفه ابنه نور الدين محمود في المدة بين سنتي ٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ حيث اتخذ حلب عاصمة له. ثم شاركتها دمشق عندما افتتحها عام ٥٤٩هـ فأصبحت عاصمة أخرى له حتى توفي سنة ٥٦٩هـ. وبعد وفاة نور الدين مباشرة نرى صلاح الدين، الذي كان قد استقر في مصر منذ سنة ٥٦٤هـ يضم دمشق إلى ممتلكاته، تاركاً حلب العاصمة الثانية لنور الدين وماتبعها، تحت سيطرة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، السلطان الراحل لكنه أخذ يحد من نفوذ الملك الصغير تدريجياً حتى حصره في حلب، ثم لم يلبث بعد وفاة الصالح إسماعيل أن مدّ سلطانه على حلب في سنة ٥٧٧[1].

وأبو شامة في الروضتين يوجه إهتمامه إلى تاريخ ثلاثة

---

(١) كانت وفاة نور الدين محمود في ١١ شوال سنة ١٥/١٥٦٩ أيار ١١٧٤ وتولى بعده أبنه الملك الصالح إسماعيل، وكان عمره إحدى عشرة سنة. ثم بدأت أحداث الصراع تتوالى حتى تمكن صلاح الدين من لم الشمل قبل معركة حطين. وعن حوادث السنوات ما بين سنة ٥٦٩هـ ٥٨١هـ. أنظر:
ـ أبو شامة: الروضتين ١/٢٣٠ وما بعدها
ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٢٤/٩ ـ ١٧٢.

من أهم أعلام المسلمين في تلك الفترة ونعني بهم: عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وذلك لأنهم بذلوا جهوداً كبيرة لتوحيد وتكتيل بلاد الشام والجزيرة والعراق ومصر، معتبراً جهودهم مجهوداً واحداً متصلاً استهدف وحدة العرب والمسلمين في هذه المنطقة التي يعتبرها قلب العالم الإسلامي، وذلك لصد الخطر الصليبي المداهم الذي أفاد من الفوضى التي شملت تلك المنطقة ليؤسس إمارات له في الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة هي مملكة بيت المقدس. وليوطد أقدامه فيها، ولذلك فالمجال الزمني لكتاب الروضتين هو تاريخ الدولتين الزنكية والأيوبية وبصورة خاصة تاريخ الفترة التي حكم فيها الرجال المشار إليهم.

ومن جهة أخرى نجد أن المجال المكاني لحوادث الروضتين، يبدأ محدوداً بذلك الذي شهد نشاط عماد الدين في مراحلة الأولى، ثم يتدرج بالشمول والإتساع مع امتداد سلطانه، وسلطان خليفتيه، حتى ينتهي، في أوسع مدى له، عند حدود الجزيرة والعراق وآسيا الصغرى والحجاز واليمن والنوبة وأفريقيا، أي عند الحدود التي ضمتها إمبراطورية صلاح الدين ورفرف عليها علمه، أما ما عدا ذلك من الحوادث التي جرت في أنحاء أخرى من العالم الإسلامي فلا مكان له

في الروضتين، باستثناء الإشارة أحياناً إلى ذكر وفاة خليفة وقيام غيره ذلك لأهمية الخلافة كرمز لوحدة العالم الإسلامي الذي سعى أبطاله الثلاثة لتحقيقها. وكذلك الإشارة إلى وفيات بعض الأعلام المبرزين في خارج النطاق المكاني لكتابه لاهتمام أبي شامة بكل ما يتعلق بالعلم والعلماء، وإذا ما كان أبو شامة قد تعرض في إحدى المناسبات للحديث عن شمالي أفريقيا، وذلك عندما توغل قراقوش التقوي[1] مملوك تقي الدين عمر الأيوبي، في مقاطعة برقة، لكن حديثه كان عرضياً ومختصراً، لم يقصد به شمال أفريقيا لذاتها، بل أريد به الحديث عن شخص وثيق الصلة بالأسرة الأيوبية، فهو لهذا السبب داخل في نطاق الموضوعات التي قصد أبو شامة أن يتحدث عنها. أما الخطاب الذي أرسله صلاح الدين إلى يوسف بن عبد المؤمن الموحدي صاحب أفريقيا، في أثناء معركة عكا، فلا صلة له بأفريقيا، إلّا لأنه مرسل من صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن الذي أعلن نفسه خليفة في

---

(١) لما تولى صلاح الدين وزارة العاضد، أرسل مملوكاً لابن أخيه أسمه قراقوش التقوي على رأس حملة قوية من الترك «الغز» فتح بهم برقة وطرابلس.
- أبو شامة: الروضتين ١ / ٢٦٠
- ابن شاهنشاه الأيوبي: مضمار الحقائق وسر الخلائق.

المغرب[1] وموضوع هذا الكتاب يدور حول معركة عكا ومتاعبها ويعرض رغبة صلاح الدين في مساعدة ابن عبد المؤمن له. لذلك فهو يدخل أيضاً في نطاق المجال المكاني الذي حدّده أبو شامة لكتابه.

وضمن إطار مجالي كتاب الروضتين، الزمني والمكاني، تناول أبو شامة موضوعات تتعلق بتنقلات الجيوش وسير المعارك وأوصاف الأسلحة والحصون والسفن الحربية وتطورات القتال وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بالحروب، سواء ما كان منها بين الأمراء المحليين في سبيل توحيد الجبهة الداخلية، أو ما دار بينهم وبين الفرنجة،

(١) لدينا نص رسالتين موجهتين من صلاح الدين إلى ملك المغرب أبو يعقوب المنصور بن عبد المؤمن الموحدي يطلب فيهما مساعدته، أورد أحداهما القلقشندي وأورد الأخرى أبو شامة. ولكن سوء العلاقة بين الرجلين حال دون اشتراك الأسطول الموحدي بمجهود ما. وربما يعود سبب هذا الخلاف إلى حملة قراقوش التقوي التي فتحت برقة وطرابلس الغرب وحاولت مساعدة المرابطين ضد الموحدين مما قاتلت أبا يعقوب وهزمته وإن رجع وهزمها أو بسبب عدم مخاطبة صلاح الدين له بالخلافة أو بسبب إنشغال الأسطول الموحدي بحرب فرنجة الأندلس أنظر:
- أبو شامة: الروضتين ٢ / ١٧٠ وما بعدها
- القلقشندي: صبح الأعشى ٦/ ٤٦ - ٥٣.
- المقريزي: السلوك الجزء الأول، القسم الأول ص ٩٩.
- ابن خلدون: المقدمة ص ٢٠٢.

المقيمين والوافدين وهو في هذا كله يستعين بالوثائق الحكومية وبـالأشعـار التي تسجـل المعـارك وتهنيء السلطان وتصف الغنـائم والأسـلاب، وتبشر بـالنصر فيمـا يجد من حـروب واشتباكات ومن جهة أخرى نجد أن نور الدين وصلاح الدين لم ينتزعا إعجاب أبي شامة لنشاطهما الحربي فقط، بل أيضاً لعدلهم بين الناس وتخفيفهم الأعباء المالية الثقيلة عن كاهل الرعية وتأسيسهم المدارس الكثيرة لنشر العلم، هذه المآثر هي التي أراد أبو شامة أن يظهرها لملوك عصره علّهم يتأسّون بها.

ولهذا كان لها نصيب في حديثه في الروضتين وإن اقتصر الحديث على ضرب الأمثلة الموضحة، كانشاء دار الكشف أو دار العدل للنظر في مـظالم الرعيـة وشكاواهم من الأمـراء والقادة، وكالمنشورات التي تقرأ على المنابر وفي الأسواق معلنة تخفيف الضرائب وإزالة المكوس، وكالمدارس والربط والزوايا التي تنشأ هنا وهنـاك لطلاب العلم أو للصـوفية أو للعلماء المجاهدين.

وإلى جانب هذا لا يفوت أبا شامة أن يسجل قرارات تولية الأمراء والنواب والحكّام في الولايات المختلفة صغيرة أو كبيـرة، مؤيداً هـذا التسجيل بمنشـور حكومي أو مـرسـوم سلطانـي، وكتاب الروضتين سجل مفصل لتاريخ الـدولتين النورية والصلاحية من الناحية الحكومية حرباً وسياسة وإدارة

وهذه الناحية الغالبة على الكتاب، أما الجانب الشعبي، فلا مجال له في الكتاب إلّا بما يتعلق بمقدار تأييد الشعب، والعلماء بصفة خاصة، للخطوات الحربية التي اتخذها السلطان، أو يذكر عدد الجنود الذي جمعهم أمير ما من امراء الإقطاع ليمد بهم سلطانه في معاركه الحربية، أو بغير ذلك من الأمور التي تجيء عرضاً وتكمل جانباً من جوانب التاريخ الزمني لابطال الكتاب.

يبدأ الكتاب في تكوينه العام، بمقدمة قصيرة وضح أبو شامة فيها الحوافز التي دفعته إلى تأليفه بعد أن صرف بعض عنايته إلى دراسة التاريخ. وذكر في هذه المقدمة المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها عند تدوينه. ثم عقد فصلاً خاصاً جعل موضوعه الدولة النورية؛ ولكنه لم يتحدث في هذا الفصل إلّا عن قضايا عامة لها صلة مباشرة بنور الدين محمود وبصفاته الشخصية التي جعلت منه حاكماً محبوباً جديراً بالتقدير؛ ومن هذه الصفات عدله، ورحمته، وجهاده، وشجاعته، وحزمه، وسياسته، وفي الحديث عن هذه الصفات يورد الأمثلة الكثيرة التي تؤكد امتياز نور الدين بها. ثم يتبع أبو شامة هذا الفصل بآخر يجمع فيه كثيراً من المدائح الشعرية التي انشدها شعراء عصره، محمد بن نصر بن صغير

القيسراني[1]. وأحمد بن منير الطرابلسي[2]، والمسلم بن الخضر بن قسيم الحموي[3] وبانتهاء هذا الفصل ينتهي الحديث العام المجمل عن الدولة النورية، وهو حديث يصطبغ في مجموعه بصبغة عاطفية تميل إلى تمجيد نور الدين وإبراز مميزاته الخلقية.

ويبدأ بعد هذا الحديث المفصل الذي يسوق الحوادث التي وقعت في عهد نور الدين ويوضحها ويؤرخها. وهنا يجد أبو شامة نفسه مضطراً إلى الحديث عن أصل بيت نور الدين ونشأته فيفرد له ثلاثة فصول قصار، يتبعها بالحديث عن عماد الدين زنكي، والد نور الدين وعن عصره وجهاده الذي امتد سحابة عشرين عاماً من سنة ٥٢١ إلى سنة ٥٤١هـ، وانتهى باستشهاده عند قلعة جعبر، ثم بتقسيم دولته بين ولديه سيف الدين غازي الذي استقر بالموصل، ونور الدين محمود الذي

---

(١) ولد بعكا سنة ٤٧٨هـ ونشأ بقيسارية بفلسطين واليها نسب، يدل على قيمته العلمية أن ابن عساكر سمع عنه واثبته ضمن شيوخه كانت بينه وبين ابن منير الطرابلسي مهاجاة عنيفة استمرت بينهما حتى مات كلاً منهما، توفي سنة ٥٤٨.

(٢) ولد بطرابلس الشام عام ٤٧٣هـ وتوفي عام ٥٤٨هـ. أتقن اللغة والأدب وقال الشعر. قدم إلى دمشق وسكنها. وقد سجن فترة لتشيعه. كما انتقل إلى حلب حيث أقام فترة كانت له أثناءها مساجلات ونوادر مع ابن القيسراني.

(٣) ترجم له ابن عساكر في تاريخ دمشق والصفدي في الوافي بالوفيات ٥٤١.

استقر بحلب، وبهذا التقسيم نجد أن عبء جهاد الفرنج وتوحيد كلمة الشام يقع على نور الدين، الذي اثبت أنه كفؤ لتحمل هذه المسؤولية، مقدر لتبعاتها، فأخلص في جهاده وأبلى في دفاعه، حتى أصبح يعد من أبطال الإسلام المعدود[1].

وبولاية نور الدين محمود لحلب سنة ٥٤١هـ، يتزايد اهتمام أبي شامة به، الذي كان من أهداف تأليفه كتاب الروضتين تمجيد هذه الشخصية الفذّة؛ فيبدأ في تفصيل الحديث عنه معتمداً على المصادر المعاصرة، ومؤيداً حديثه بما استطاع الوصول إليه من الوثائق الحكومية، أو من الأشعار والقصائد التي سجلت مراحل جهاده، وتتّبعت معاركه بالتفصيل والتقريظ، ويلتزم أبو شامة في هذا الحديث نظام الحوليات، الذي اتبعه كثير من المؤرخين في عصره مبتدءاً بسنة ٥٤٢هـ، وهي السنة التالية لتاريخ استشهاد والده عماد الدين عند قلعة جعبر. لكن أبا شامة لا ينسى أن يفرد فصولاً خاصة، طويلة أو قصيرة لبعض الأحداث التي تستحق من وجهة نظره هذا التخصيص، وذلك داخل نطاق النظام

(١) عن جهاده ضد الصليبيين بالإضافة إلى المصادر انظر.
- حسن حبشي: نور الدين والصليبيون ط القاهرة ١٩٤٨.

الحوْلي؛ بمعنى أن الحديث عن سنة بعينها قد يجيء في فصول متتابعة، يختص كل منها بحادثة أو بعدة حوادث، غير أنه لا يتجاوز هذه السنة إلى السنة التي تليها، ويستمر أبو شامة في حديثه، بهذه الطريقة، عن عصر نور الدين، ثم عن عصر خليفته في حمل رسالة التوحيد الإسلامي وراية الدفاع عن الإسلام في وجه الغزو الصليبي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذي تلقى واهله دروس الجهاد في بلاط نور الدين، ثم حمل راية الجهاد بعده ليكمل رسالته طيلة حياته حتى لبى نداء ربه سنة ٥٨٩هـ، بعد انتهاء معركته مع جموع الصليبيين في حملتهم الثالثة بشهور قليلة.

وهنا يعامل أبو شامة بطله الثاني صلاح الدين بنفس الطريقة التي عامل بها نور الدين في أول الكتاب، فيعقد فصلاً خاصاً يتحدث فيه عن صفات صلاح الدين التي تميّز بها، فوضعته في صفوف الأبطال المجاهدين، والحكام المشهود لهم بحسن السيرة وصدق العزيمة ونبل المقصد، ويختم أبو شامة كتابه بفصول قصار متتابعة يتحدث فيها عن تطورات الأمور في الدولة الإيوبية بعد وفاة صلاح الدين، وبخاصة في فترة النزاع بين ابنائه وبين عمهم العادل سيف الدين؛ ولا يتقيد أبو شامة في هذا الحديث بالتسلسل التاريخي إلّا فيما يقتبسه

عن العماد الأصفهاني في كتابه، «خطفة البارق وعطفه الشارق» إذ أنه يعود إلى اتباع طريقة الحوليات في اختصار شديد.

وبهذا الاقتباس ينهي أبو شامة كتاب الروضتين، بعد أن سجل تاريخاً مفصلاً لدولتي نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين يوسف الأيوبي، تتبع فيه نشاطهما ومجهودهما الذي جعل منهما في المتأخرين مثلاً يحتذى، والذي رفع مكانهما حتى صارا في زمانهما كالعُمَرين في عصرهما، عدلاً وديانة وجهاداً.

٣ ـ مصادر كتاب الروضتين.

إن معرفة المصادر التي اعتمد عليها أبو شامة كفيلة بإظهار القيمة التاريخية لكتاب الروضتين، ومقدار دقته وصدقه في تصوير العصر الذي تعرّض له. ومن حسن الحظ أن أبا شامة يوفر علينا كثيراً من العناء ويجعل مهمتنا مُيَسَّرة إلى حد كبير فهو يذكر في مقدمة الكتاب المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها وهي تاريخ دمشق لابن عساكر، وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، وتاريخ الأتابكة لعز الدين ابن الأثير. والفتح القدسي والبرق الشامي للعماد الأصفهاني، والنوادر السلطانية لابن شداد، ورسائل القاضي الفاضل، وكثيراً من الأبيات

الشعرية من دواوين العماد الأصفهاني وغيره[1]. كما أن أبا شامة يعرِّج على ذكر هذه المصادر مجدداً حين كاد ينتهي من تدوين حوادث كتابه بعد الفراغ من الحديث عن صلاح الدين، إذ يقول[2]:

«واستوفينا ما في كتابي البرق والفتح القدسي والتاريخ الأتابكي وكتاب القاضي أبي المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من عدة مصنفات ودواوين ومراسلات».

ومن يستعرض الروضتين يتأكد ممّا ذكره أبو شامة في مصادره، كما يقف على مصادر ثانوية أخرى اقتبست مرة أو مرتين، أو نحو ذلك، وهي تدخل بذلك في قوله: «وانضافت إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنّفات ودواوين ومراسلات».

ومما تجدر ملاحظته أن هناك مصدراً يأتي في المقدمة بين المصادر الرئيسية التي اعتمد عليها أبو شامة في الجزء الأول، والنصف الأول من الجزء الثاني من كتابه الروضتين ومع ذلك فهو لا يذكره في مقدمة الروضتين بين المصادر الرئيسية التي اعتمدها، كما لا يشير إليه في عبارته المجملة

(١) أبو شامة: الروضتين ١/٤.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/٢٤١.

التي أوردها آنفاً، علماً أن أبا شامة يقتبس هذا المصدر في مناسبات أكثر عدداً، وفي موضوعات أعظم أهمية، وفي عبارات أكثر طولاً، من تلك المناسبات التي اقتبس فيها غيره، وهذا المصدر هو كتاب السيرة الصلاحية ليحيى بن أبي طي الحلبي. ومع أن أبا شامة أشار في مناسبات الاقتباس إلى أنها منقولة عن ابن أبي طي، كما فعل هذا ببقية المصادر الأخرى حتى تلك التي اقتبس منها مرة واحدة، لكن مما يؤاخذ عليه أبو شامة أنه لم يُشر إلى هذا المصدر إشارة واضحة، ولم يذكر صاحبه إلى جانب من ذكرهم من المؤرخين الذين اعتمد عليهم كابن الأثير وابن شداد وغيرهم وسنستعرض هذه المصادر تبعاً لأسبقيتها الزمنية.

أ ـ تاريخ دمشق:

عني كثيرون من مؤرخي المسلمين بتأليف كتب تناولوا فيها تاريخ قطر من الأقطار العربية الإسلامية أو تاريخ بلاد أخرى أو الترجمة لبعض مشاهير الرجال أو الدول. ويغلب على الظن أن اهتمام أولئك المؤرخين بقطر واحد أو بمدينة واحدة كان نتيجة أنهم من أبناء ذلك القطر أو تلك المدينة. وقد اهتم مؤرخو ذلك الفرع بكتابة سيرة الشخصيات الفذة التي نشأت في القطر أو المدينة التي عنوا بكتابة تاريخها. ومؤرخو

البلدان كثيرون ومن بينهم ابن عساكر الذي يعتبر تاريخه لمدينة دمشق من تآليفه.

هو الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين المعروف بابن عساكر الشافعي. ولد في مستهل رجب سنة ٤٨٩ (١١٠٦/٣/٩) في دمشق. وتلقى علم الحديث في المدرسة النظامية[1] التي اسسها نظام الملك وزير ألب رسلان وملكشاه السلجوقيين، وفي المدن الكبرى في فارس. ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث عين معلماً في مدرسة نور الدين زنكي المعروفة بالمدرسة النورية[2] وقد اعتبر في حياته في طليعة

---

(١) المدرسة النظامية أنشأها الوزير الفارسي نظام الملك الطوسي الذي وزر للسلطان ملكشاه السلجوقي في أواسط القرن الخامس الهجري وذلك سنة ٤٥٧هـ ويجمع المؤرخون على اعتبارها أسبق المدارس إلى الظهور في الإسلام، كمدرسة منظمة بالمجان والارتزاق للطلبة. لهذا سميت معاهد العلم التي تلتها بالمدارس. تخرج منها جماعة من رجال العلم ذاع صيتهم في الآفاق وساعدوا على تطور الحركة المدرسية في البلاد الإسلامية. من أوائل أساتذتها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي والإمام أبو نصر الصالح وأبو حامد الغزالي والسهر وردي.

- جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي الجزء الثالث ص ٢٢٢ و ٣٢٥ ط. دار الهلال سنة ١٩٥٨.

- حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ص ١٤ دار الآفاق الجديدة بيروت سنة ١٩٨٣.

(٢) أنشأها نور الدين زنكي. كانت على مقربة من البيمارستان النوري، وقيل أنها كانت بالكلاسة وقد درست ولم يبق لها أثر.

فقهاء، الشافعية. وكانت وفاته بدمشق في الحادي عشر من رجب سنة ٥٧١هـ (١١٧٦/١/٢٦). وقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبي وراء نعشه ولابن عساكر مصنفات عديدة ذكرها بروكلمان[1] ومنها كتابه عن تاريخ دمشق وهو تاريخ مشاهير الدمشقيين والعلماء الذين أقاموا بدمشق زمناً، وبعض الأنبياء أيضاً كسليمان وشعيب. وهو يقتدي في ذلك بطريقة الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد، وقد نشر صلاح الدين المنجد منه مجلدين، الأول سنة ١٩٥١ والثاني سنة ١٩٥٤ ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق. كما هذّبه بترتيب جديد واختصار في الأسانيد عبد القادر بن أحمد بن بدران المتوفي سنة ١٣٤٦ (١٩٢٧) تحت عنوان «تهذيب تاريخ ابن عساكر» وقد نشرت المجلدات الخمسة الأولى بدمشق فيما بين سنتي ١٣٢٩ ـ ١٣٣٢ ونشر أحمد عبيد المجلدين السادس والسابع سنتي ١٣٤٩ ـ ١٣٥١ (حتى عبد الله بن سيّار) وقد ذكر لنا أبو شامة سبب اهتمامه بتاريخ ابن عساكر كونه احتوى على ترجمة حسنة لنور الدين محمود زنكي، كما يذكر أنه

= ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢٣١/١ تحقيق جعفر الحسني دمشق ١٣٦٧/١٩٤٥.
ـ حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأموي ص ٥٣.

(1) بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٦/ ٧٠ ـ ٧١.

اختصره وهذّبه وزاد عليه، كما وقف عليه العلماء وسمعه الشيوخ والفضلاء[1].

ب ـ ذيل تاريخ دمشق:

هذا الكتاب لحمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلى التميمي الدمشقي العميد المعروف بابن القلانسي. ولي رياسة ديوان دمشق مرتين وتوفي في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ (٢٨/٣/١١٦٠).

ألف كتاب ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ليكون ذيلاً على التاريخ العام الذي ألّفه هلال الصابي والذي ينتهي سنة ٤٤٧هـ. وينتهي ذيل تاريخ دمشق في سنة ٥٥٥هـ وهي السنة التي توفي فيها المؤلف. أما بدايته فموضع اختلاف، فبينما يذكر ياقوت أنه يبدأ سنة ٤٤١هـ يذكر ابن عساكر أن سنة ٤٤٨ هـ هي مبدأ الذيل. وتاريخ أبي يعلى، على كلا القولين، يعالج فترة تزيد على القرن ببضع سنوات تنتهي في سنة ٥٥٥هـ.

ويذكر أبو شامة في مقدمة كتاب الروضتين سر اهتمامه بكتاب الرئيس أبي يعلى حين يقول له: «شمل قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية». ونور الدين تولى حلب بعد وفاة

(١) أبو شامة: الروضتين ١/٣ ـ ٤.

والده عماد الدين زنكي في سنة ٥٤١هـ. وبهذا نجد أن كتاب ابن يعلى يشمل نحو أربع عشرة سنة من عهد نور الدين زنكي تبدأ بولايته حلب وتنتهي بنهاية الكتاب. وفي حديثه عن هذه الفترة، يعتمد أبو شامة اعتماداً كبيراً على أبي يعلى. فيبدأ اقتباسه في كتابه بعد وفاة زنكي مباشرة ويواصل الاعتماد عليه بعد ذلك حتى يصل عدد الاقتباسات منه سبعاً وثلاثين مرة تنتهي بنهاية الذيل سنة ٥٥٥هـ.

وترجع أهمية الكتاب، كذلك، إلى أن مؤلفه حين يتحدث عن دمشق، إنما يتحدث حديث عليم يمد القارىء بمعلومات على درجة كبيرة من الأهمية، فأبو يعلى من مواطني دمشق المقيمين بها. وقد كان إلى جانب ذلك من رجالها الرسميين المسؤولين، لأنه تولى رياسة ديوانها مرتين، فأتاحت له هذه الصفة الرسمية الإتصال المباشر بالتقلبات السياسية والإجتماعية والحربية التي حدثت في دمشق أو التي كانت دمشق طرفاً فيها، وبهذا يتبيّن أن هذا الكتاب الذي ألّفه أبو يعلى مصدر محلي معاصر مهم، فليس هناك أولى منه في معرفة تاريخ دمشق، وما يتّصل بها في هذه الفترة من عصر نور الدين، وهي تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ الدولة النورية الذي تعرّض له أبو شامة بالتأليف.

ج ـ رسائل القاضي الفاضل:

هو أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي بن القاضي السعيد البيسالي اللخمي، العسقلاني المولد، المصري الدار الملقب بمجير الدين والمعروف بالقاضي الفاضل ولد القاضي الفاضل في منتصف جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ (١١٣٥/٤/٣م). وكان أبوه قاضي عسقلان ابان خلافة الحافظ لدين الله الفاطمي. فأرسل ولده عبد الرحيم إلى مصر، فاتصل بأبي الفتح بن قادوس [١] واستفاد منه كثيراً. ثم صار كاتباً لقاضي الإسكندرية. وما لبث أن استدعاه العادل رزيك [٢] إلى القاهرة للعمل في ديوان الجيش، وقد حافظ على وظيفته خلال الإضطرابات التي

(١) أبو الفتح بن قادوس كاتب الإنشاء أصله من دمياط كان القاضي الفاضل يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين.
ـ أبو شامة: الروضتين ١٠٣/١.

(٢) هو ابن طلائع بن رزيك، تولى تقدمة الجيش في وزارة أبيه، ثم أجبر العاضد على أن يفوض إليه الوزارة مثل أبيه وأخذ لنفسه لقب العادل، ولكن ظهر له منافس في شخص أبو شجاع شاور والي قوص بالصعيد، الذي ذهب إلى القاهرة في سنة ١١٦٣/٥٥٨، فهرب رزيك إلى اطفيح وأسر هناك وحُمل إلى مصر ليقتله طيء بن شاور.
ـ القلقشندي: صبح الأعشى ٣٢٥/١٠ـ٣٣٧.
ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣٤٦/٥.

صاحبت سنتي الفاطميين الأخيرة، إلى أن ولاّه صلاح الدين، وكان لا يزال وزيراً، ديوان الإنشاء وقد هيّأت له صلته بصلاح الدين أن يمكّن نفوذه ويُظهر عن كفائته، حتى أصبح الساعد الأيمن له يستشيره ويعتمد عليه في كل ما يتعلق بشؤون دولته، بل نراه يستمده النصح في أخص شؤونه العائلية.

وقد تزايدت أهمية القاضي الفاضل في دولة صلاح الدين حيث عهد إليه إصلاح النظام المالي للجيش. كما أنابه صلاح الدين عنه في إدارة شؤون مصر بين سنتي ٥٨٥ ـ ٥٨٨هـ، أيام الحملة الصليبية الثالثة. ولم يكتف بذلك، بل اعتمد عليه في التصرف بكثير من المشكلات التي سبّبها بعض قواد الجيش الأيوبي وامرائه في ميدان المعركة بالشام. وقد عبر صلاح الدين عن تقديره للقاضي الفاضل بقوله: «ما فتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بكلام الفاضل»[1].

وعند موت السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م)، نشبت الحرب بين إبنيه الملك الأفضل بدمشق والملك العزيز بمصر، فانضم القاضي الفاضل إلى العزيز. ثم توسط بين الإخوة لإحلال السلام سنة ٥٩١هـ (١١٩٥)،

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ٣٢٤/٤.

ولازم بيته بعد ذلك إلى أن توفي في السادس أو السابع من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ (٢٦ أو ٢٧ كانون الثاني ١٢٠٠م).

عرف القاضي الفاضل بغزارة انتاجه الأدبي. وقد كانت ظروف الحرب الصليبية تُحتّم عليه، كقائم على ديوان الإنشاء، أن يكثر من تحرير الرسائل في شتى الأمور إلى الملوك والأمراء والحكام والنواب، ومن سوء الحظ أن معظم رسائله قد ضاع ولم يصلنا إلّا جزء يسير منها هي: «الفاضل من كلام الفاضل»، و«الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم» جمعها القاضي محي الدين بن عبد الظاهر [1]. و«فصوص الفصول وعقود العقول» جمعها ابن سناء الملك كما وصلت إلينا في كتب متفرقة مثل نهاية الأدب للنويري وصبح الأعشى للقلقشندي والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة والنكت العصرية لعمارة اليمني [2] وغيرهم.

---

(١) ولد محي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٢٠هـ وتوفي سنة ٦٩٢هـ، زعيم الكتّاب في عصره، خدم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف صلاح الدين خليل أيضاً.

(٢) أبو محمد عمارة بن عليٍ بن زيدان نجم الدين اليمني، ولد في حدود سنة ٥١٥هـ/١١٢٧م جاء إلى مكة حاجاً سنة ٥٤٢هـ/١١٥٤م فسيّره صاحب مكة رسولاً إلى القاهرة حيث نال حظوة الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره الصالح بن رزيك، مال إلى الفاطميين واعترف بدعواهم. وعندما فتح صلاح الدين مصر مدحه عمارة وإن ظل على ولائه للفاطميين. قتل شنقاً =

وإلى جانب هذه الرسائل نجد في خطط المقريزي مقتبسات عدة مأخوذة عن القاضي الفاضل يصدرها المقريزي بكلمة «متجددات» أو «مجلدات» أو «مياومات» وبالمقارنة بين الرسائل والمتجددات نلحظ أن موضوع الرسائل، كما نجدها في الروضتين وفي غيره هي عبارة عن حوادث معينة محدودة، سياسية أو حربية، أو مكاتبات للأفراد أو للخليفة، أو للسلطان. وكل رسالة من هذه الرسائل وحدة مستقلة بذاتها تتناول موضوعاً معيناً له مناسبته الخاصة. أما المتجدادت، كما نجدها في الخطط، فتختلف في طبيعتها عن الرسائل، فهي لا تتعلق بمناسبة معينة أو موضوع معيّن يعالجه الفاضل على شكل رسائل. هذا إلى أنها تبدأ بذكر تاريخ معين، ثم تتحدث عن موضوعات لها في الغالب، الصبغة الحكومية والإدارية. وعلى هذا فالمياومات أو التعليقات، أو المتجددات، أسماء لمؤلّف أو مؤلّفات غير الرسائل التي اقتبسها أبو شامة في كتابه وإنما هي كتاب في التاريخ سجّل فيه القاضي الأعمال التي قام بها أو أشرف عليه مدة رئاسته لديوان الإنشاء، كما تدل على ذلك المقتبسات التي أوردها المقريزي في خططه.

= أمر صلاح الدين في رمضان سنة ٥٦٩هـ/١١٧٥م بسبب قصيدة مدح فيها الفاطميين وفي قول آخر بسبب تورطه في مؤامرة لإجلاس ابن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين على العرش بمعونة الفرنجة.

د ـ مؤلفات العماد الأصفهاني:

هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين الملقب عماد الدين الأصفهاني. ولد بأصفهان سنة ٥١٩هـ (١١٢٥م). وانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية ببغداد. وولاه الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة[1] نظر البصرة، ثم نظر واسط. ولما توفي الوزير ابن هبيرة سنة ٥٦١هـ (١١٦١م) فقد العماد مكانته وأودع السجن، ومع أنه أطلق سراحه بعد ذلك بقليل، فلم يستطع أن يسترد مكانته بالعراق، فانتقل إلى دمشق وهناك قدّمه كمال الدين بن الشهرزوري[2]، قاضي قضاة دمشق، إلى نور الدين محمود بن زنكي فعيّنه في ديوان الإنشاء سنة ٥٦٣. وبقي فيه حتى نقل إلى وظيفة أخرى في سنة ٥٦٧هـ تتناسب مع نشاطه العلمي قبل قدومه إلى الشام، وهي وظيفة الاستاذيه بالمدرسة النورية الشافعية، داخل باب الفرج، والتي نسبت إليه، لسكناه بها، فقيل لها العمادية ثم ولاه في السنة التالية الإشراف على ديوان الإنشاء.

وتدهورت مكانة العماد بعد وفاة نور الدين، ذلك أن ابنه

(١) هو عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني وزر للخليفة العباسي المقتفي ثم للمستنجد.

(٢) أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبد الله الفقيه الشافعي. تولى قضاء الموصل أيام زنكي وفد دمشق سنة ٥٥٠ وتولى قضاءها توفي سنة ٥٧٢ هـ.

وخليفته الملك الصالح إسماعيل، الذي ولي الملك سنة ٥٦٩ (١١٧٣م) وهو في الحادية عشرة من عمره، عزل العماد من جميع مناصبه، وطرده من البلاط، فخرج العماد من دمشق قاصداً بغداد، فوصل إلى الموصل ومرض بها، وهناك بلغه أن صلاح الدين استولى على مصر، وأنه خرج منها قاصداً دمشق ليستولي عليها، فلاقاه العماد في حمص، واتصل بالقاضي الفاضل الذي توسط في أمره عند صلاح الدين، فعيّنه في ديوان الإنشاء، لينوب عن القاضي الفاضل وليحمل عنه بعض أعباء وظيفته، واكتسب حظوته من جديد، ومن ذلك التاريخ لازم العماد صلاح الدين، في رحلته أو إقامته، وقام له بمثل ما كان القاضي الفاضل يقوم به من الأعمال، وإن لم يصل إلى نفس المكانة السامية التي صارت للفاضل، عشير صلاح الدين ويده اليمنى في جميع أعمال الإدارة والسياسة والحرب، بل في أخص الشؤون العائلية للأسرة الأيوبية. ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣م) اضطر العماد إلى ملازمة بيته وأقبل على التصنيف حتى توفي في الثالث عشر من رمضان سنة ٥٩٧ (١٢٠١/٦/٢٠م).

ويقتبس أبو شامة العماد الأصفهاني في وثائقه التي كتبها باسم السلطان، عندما كان يعمل في ديوان الإنشاء، إلى الجهات المختلفة، ويقتبسه كذلك في كتاب الفتح القدسي

وكتاب البرق الشامي، وكتاب تاريخ دولة آل سلجوق، وفي خريدة القصر وجريدة أهل العصر وفي بعض رسائل أخرى قصيرة، وطائفة من أشعاره التي نقلها عن ديوانه.

أما كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي فهو تاريخ سبع سنوات فقط من حياة صلاح الدين (٥٨٣ ـ ٥٨٩) وهو العام الذي فتح صلاح الدين فيه بيت المقدس. والقاضي الفاضل هو الذي أطلق على كتاب العماد هذه التسمية، فسماه الفتح القدسي نسبة إلى بيت المقدس، والفتح القسي، نسبة إلى قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب في الجاهلية وكان قس معروفاً إذ ذاك بالسجع. وكان العماد الأصفهاني قد جعل كتابه هذا سجعاً من أوله إلى آخره، فاستحسن القاضي الفاضل هذه التسمية. وقصده منها ان الله فتح على العماد في سجعه هذا كما فتح على قس بن ساعدة من قبله في السجع والبلاغة أيضاً.

وكتاب الفتح القسي تسجيل تاريخي منظم للنشاط الحربي الذي قام به صلاح الدين بين سنتي ٥٨٣ ـ ٥٨٩هـ وهي فترة الجهاد الأكبر الذي قام به لتطهير فلسطين وبلاد الشام عامة من الإحتلال الصليبي. وقد استعاد صلاح الدين بهذه الحروب كثيراً من معاقل الصليبيين، وفي مقدمتها بيت

المقدس، كما واجه جموعهم في حملتهم الثالثة بزعامة فريدريك بربروسا ملك المانيا، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا، وفيليب ملك فرنسا. وهذه الحملة انتهت بصلح الرملة قبيل وفاة صلاح الدين بشهور قليلة.

وفي مقدمة كتاب الفتح القسي يتحدث العماد عن سبب اختياره سنة ٥٨٣هـ لتكون بداية للكتاب فيقول عن خروج الجيوش الإسلامية للحرب.

«وأنا أرّخت بهجرة ثانية، وهي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس. وهذه الهجرة ابقى الهجرتين وأعظم الكرّتين».

والفرق بين فتوح الشام، في رأي العماد، والفتوح الإسلامية الأولى فرق بيّن تبيّن الخيط الأسود من الخيط الأبيض، من الفجر، فأن الشام فتح والعهد بالرسول غير بعيد، والسلاح لم يكن بهذا التنوع والضخامة التي كان عليها أيام الفتح الصلاحي، هذا بالإضافة إلى أنه فتح للقدس بعد أن طغى عليها الكفر وانحسر عنها الإسلام.

أما الفترة التي يشملها البرق الشامي فتبدأ سنة ٥٦٢هـ، وتنتهي عند وفاة صلاح الدين وهذا الكتاب أكبر حجماً من الفتح القسي وأوسع مجالاً. وقد بدأه بذكر انتقاله من العراق إلى الشام، واتصاله بخدمة نور الدين عن طريق كمال الدين





السبب لا يعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر الروضتين الذي لا يهتم اهتماماً مباشراً بتاريخ السلاجقة.

وللعماد مؤلف آخر له طابع أدبي صرف. وهو كتاب «خريدة القصر وجريدة أهل العصر»[1] وهو تراجم لادباء مصر والشام والمغرب والعراق والجزيرة، ممن عاصروا العماد، والخريدة ذيل على كتاب «دمية القصر» للباخرزي، وهذا الكتاب الأخير ذيل لكتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي.

ويقع كتاب الخريدة في عدة مجلدات يستقل واحد منها أو أكثر بجهة من الجهات وقد اقتبسه أبو شامة أيضاً في مناسبات قليلة عند الحديث عن بعض الشخصيات للتعريف بقيمتها الأدبية، وذلك مثل الصالح طلائع بن رزيك، أو الجليس بن الحباب، أو ابن المهذب الزبيري، من رجال الدولة الفاطمية.

---

(١) نشر قسم شعراء العراق أحمد أمين وشوقي ضيف وأحسان عباس في جزئين بالقاهرة سنة ١٩٥١ وما بعدها وقسم شعراء المغرب نشره محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى في جزء واحد بتونس سنة ١٩٦٦. أما القسم العراقي فقد نشره محمد بهجة الأثري في ثلاثة أجزاء فيه هي الأول والثاني والرابع ببغداد من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٩٧٣. والقسم الشامي نشره شكري فيصل بدمشق سنة ١٩٦٨ عن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

وللعماد ديوان شعر، وقد ضاع، لكن أبو شامة سجّل بالروضتين جملة قصائد من نظم العماد في مدح نور الدين وصلاح الدين، تهنئهما بانتصارهما على الصليبيين، وفي رثاء كل منهما عند وفاته. كما ضاعت رسائله ولم يصل لنا منها سوى قدر ضئيل ومن كتبه أيضاً «رسالة العتبى والعقبى» عن الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) وقد ذكره أبو شامة، كما ذكر كتاباً أخر له هو «خطفة البارق وعطفة الشارق» عن الأحداث من سنة ٥٩٣هـ حتى موته.

هـ ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية:

للمؤرخ بهاء الدين أبا الحسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتّاب الأسدي الذي يكنى بأبي المحاسن، وينسب لاخواله من بني شداد وذلك لأنه تربى في كنفهم لوفاة أبيه وهو صغير السن. وكان شداد جده لأمه. ولد في الموصل في العاشر من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ (١١٤٥/٣/٦م) وتلقى العلم بها. وقد ذكر في بعض تآليفه أسماء المشايخ الأعلام الذين أخذ عنهم. وبعد أن أتم دراسته في مسقط رأسه انحدر إلى بغداد حيث عيّن مدرساً في المدرسة النظامية، ثم عاد إلى الموصل ليتولى التدريس في





بهذه الصفة ويذكر طرفاً من نوادره في ذلك. ثم يختم الحديث في هذه الصفة بالدعاء للسلطان أن يرحمه رحمة واسعة. والواقع أن هذا القسم الأخير لا يعدو كونه تمهيداً للغرض الأصلي الذي ألّف الكتاب من أجله، وهو تفصيل الحديث عن نشاط صلاح الدين وجهاده وحروبه التي جعلت منه بطلاً ومجاهداً.

أما في القسم الثاني من الكتاب فيتحدث ابن شداد عن وقائع السلطان حديثاً يمتاز عن حديث غيره من المؤرخين بناحية هامة. وهي أنه كان كثيراً ما يعتمد على مشاهداته ومعلوماته، لا على الروايات المختلفة التي اعتمد عليها غيره كابن واصل وأبو شامة وغيرهما. ولذلك نجده يقول أثناء حديثه عن حوادث سنة ٥٨٤هـ وهي السنة التي التحق فيها ابن شداد بخدمة صلاح الدين.

«ومن هذا التاريخ ما سطّرت إلّا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان»[1].

كما نجده يقول في أثناء الحديث عن السنة السابقة لهذه السنة، أي سنة ٥٨٣هـ، بعد رواية قصة مقتل البرنس أمير

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٢٧.

الكرك بيد صلاح الدين: «وهكذا بلغني عن ألسنة جماعة لأني لم أحضر هذه الواقعة»[1].

وهكذا نجد أن كتاب النوادر السلطانية يعتبر مصدراً معاصراً هاماً في المدة التي تقع بين سنوات ٥٨٤ ـ ٥٨٩هـ، كما أنه يرقى باعتماده على الثقات في رواية ما سبق هذه الفترة إلى مرتبة المصادر الرئيسية الأولى التي اعتمدعليها أبو شامة. من خلال ما تقدم، نلاحظ أن كلاً من ابن شداد والقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني كان على صلة بمجريات الأحداث بمقدار أهمية كل منهم في الجهاز الحكومي. على أن العبء الأكبر والمكانة الأولى كانت للقاضي الفاضل. أما ابن شداد فلم يتصل بصلاح الدين إلّا في سِنيِّه الأخيرة عندما مر بدمشق سنة ٥٨٣هـ في طريقه إلى الحج فاعجب صلاح الدين به ثم مر بها مرة أخرى في عودته في السنة التالية، فعرض عليه السلطان أن يوليه قضاء العسكر فقبل، ولازم ابن شداد صلاح الدين منذئذٍ حتى تم له فتح القدس فولّاه قضاءها. وبقي على صلته القوية بالسلطان الذي توفي سنة ٥٨٩هـ، فاتصل بعد ذلك بابنه الملك الظاهر صاحب حلب. وهكذا نجد أن شخصية ابن شداد هي التي مهدّت له بطريق

(١) ابن شداد: المرجع السابق ص ٦٣ ـ ٦٤.





هذا الكتاب المدة الواقعة بين سنتي ٤٧٧ ـ ٦٩٧هـ، أي منذ ولاية آق سنقر صاحب الموصل، والد عماد الدين زنكي، حتى بدء ولاية القاهر مسعود الذي أهدى إليه الكتاب. وابن الأثير مصدر رئيسي للحوادث التي يسجلها في الخمسين سنة الأخيرة التي يشملها الكتاب، أما حوادث السنوات التي سبقت فقد استقاها من الثقات الذين يعتمد عليهم، كما يقول، وفي مقدمتهم والده، الذي يتردد ذِكْرُه في الكتاب كمصدر خمساً وعشرين مرة، ويذكر ابن الأثير أن والده حكى له معظم ما جاء في هذا الكتاب وإن كان هو دوّنه، مما حفظه بعد وفاة والده، الأمر الذي أدى إلى نسيانه لكثير مما قصّه عليه، ونادراً ما يذكر ابن الأثير المصادر الأخرى التي استقى منها معلوماته التي سجّلها في هذا الكتاب. ومن هذا القبيل نجده يذكر ابن عساكر مرتين، وأسامة بن منقذ مرة واحدة. وكذلك كمال الدين ابن العديم والعماد الأصفهاني، وقد نجده يتعمد تعمية المصدر أحياناً، مشيراً إليه بقوله: «وذكر لي أعلم أهل زمانه بالأنساب» أو «وذكر لي من أثق في صدق روايته».

ويقصر ابن الأثير حديثه في الكتاب على تاريخ أتابكة الموصل من آل زنكي، دون أن يتعداه إلّا إلى ذكر وفاة خليفة أو سلطان وولاية غيرهما. وهو إذا ذكر شيئاً عن حملات شيركوه على مصر، لا يعدو أن يكون مقرراً لحوادث لها صلة بفائد من

قواد نور الدين محمود سار بأمر منه ينفِّذ تعليماته. وقد يستطرد ابن الأثير فيتحدث عن موضوعات، أو أشياء لا تتصل اتصالاً مباشراً بالأتابكة، لكنه سرعان ما يتنبّه إلى هذا الأمر فيعرض عنه صراحة قائلاً: «وسنذكر هنا ما يتعلق بشؤون الموصل معرضين عن غيره حتى لا يخرج بنا عن الغرض من الكتاب».

ويشمل كتاب ابن الأثير الآخر: «الكامل في التاريخ»، وهو أكبر حجماً وأوسع مجالاً، من الناحيتين المكانية والزمانية، من كتاب الباهر، ضمن محتوياته الفترة التي اختصها بكتاب الباهر؛ بل إننا نجد الكثير من أوجه الشبه بين الكتابين في العبارات والألفاظ، مع بعض الزيادة في أحدهما بذكر حوادث جديدة، أو بالتوسع في الحديث عن حادثة معيّنة. والسبب في ذلك أن ابن الأثير كتب أولاً كتابه «الكامل» الكبير في صورته الأولى، لكنه لم يخرجه في صورته الأخيرة بعد تصحيحه ومراجعته إلاّ بعد سنة ٦٠٩، في حين أنه أخرج كتابه عن الأتابكة سنة ٦٠٧هـ معتمداً فيه على ما سجله في مسودات كتاب الكامل.

ز ـ مؤلفات ابن أبي طي الحلبي:

لا نعرف عن هذا المؤرخ الشيعي شيئاً ما أكثر من أن تاريخه يعتبر من أهم مصادر الدولة الفاطمية في العصر الأخير





ج ـ الوثائق الرسمية:

من المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها أبو شامة، الوثائق الرسمية لأهميتها في التعبير عن وجهة النظر الحكومية في الحوادث الجارية. وقد سبق أبا شامة إلى استعمال هذه الوثائق، من مؤرخي عصره، العماد الأصفهاني كاتب الإنشاء لصلاح الدين الذي كتب كثيراً من المراسم والمنشورات والكتب السلطانية. واقتبس منها شيئاً في كتابيه الفتح القسي والبرق الشامي، كما اعتمد ابن أبي طي، وهو من مصادر الروضتين كذلك في مؤلفاته التاريخية، على بعض الوثائق التي ينقلها عن العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل.

وتدل دراسة الوثائق، التي وردت في كتاب الروضتين، دراسة إحصائية على أنها ترجع جميعها إلى عصري نور الدين وصلاح الدين، أي ترجع في تاريخها إلى السنوات ٥٤١ ـ ٥٨٩هـ. ومع هذا لا نجد منها أكثر من عشر وثائق تتحدث عن أمور حدثت في عصر نور الدين، على حين يتعلق بقيتها بعصر صلاح الدين. وهذه تبلغ مائة وستاً وتسعين وثيقة. وقد أورد أبو شامة في الجزء الأول من كتابه الذي ينتهي بنهاية سنة ٥٧٣هـ أربعين وثيقة، بينما أورد الباقي في الجزء الثاني من الكتاب. وهنا نلاحظ أن الوثائق التي تتعلق بعصر نور الدين قليلة العدد،

وأن عدد الوثائق يتزايد تدريجياً بعد وفاة نور الـدين. كما نلاحظ أن ما يتعلق منها بالقسم الأول من عصر صلاح الدين وهو القسم الذي يختص بفترة وزارته للخليفة العاضـد أقل عدداً من الوثائق التي تتحدث عن بقية عصره، ويفسر هذه الظاهرة أن معظم الوثائق التي يقتبسها أبو شامة مأخوذة من مجلدات الرسائل الفاضلية، التي خلّفها القاضي الفاضل، ومن وثائق العماد الأصفهاني التي أوردها في كتـابي الفتح القسي والبرق الشامي، أما القاضي الفاضل فإنه لم يصبح شخصية هامة في الأوساط الحكومية، رغم اتصاله المبكـر بالأيوبيين عندما التحق بخدمة شيركوه في مصر إلاّ بعد أن تأكد سلطان صلاح الدين ونفوذه وشخصيته، وذلك بعد أن قـلّ اعتماده على نصائحه من أقاربه وخلفائه الذين كان يتصدرهم والده نجم الدين أيوب، ولم تكن للقاضي الفاضل صلة بنور الدين أو بحكومته في يوم من الأيام ولذا نجد أن الوثائق التي يكتبها القاضي الفاضل تتزايد عدداً وقيمة عندما يشتد اعتماد صلاح الدين عليه في حكومته، بينما يقل عددها في الفترة اللاحقة. وقد برهن القاضي الفاضل على أنه جدير بالمكانة التي وصل إليها والثقة التي وضعت فيه.

ويختلف العماد الأصفهاني عن القاضي الفاضل في أنه أتصل بخدمة نور الدين ثم بخدمة صلاح الدين، ولكن، رغم

ذلك، لا نجد له وثائق كثيرة عن عصر نور الدين، ذلك أنه لم يلتحق بديوان الانشاء إلّا كأحد الكتّاب ولفترة قصيرة، ثم انصرف عنه للعمل الذي كان يتقنه أكثر من غيره، في ذلك الحين، وهو التدريس. ثم ازدادت أهميته عندما عاد إلى ديوان الإنشاء مساعداً للقاضي الفاضل ونائباً عنه عندما كان يلازم صلاح الدين في تنقلاته وإقامته في بلاد الشام.

أما موضوعات هذه الوثائق فمتنوعة فهي تتناول أمور السياسة والحرب والإدارة وتنظيم الجيوش وتعيين الولاة، والتبشير بفتح جديد أو انتصار حربي، كما يؤكد بعضها ولاء السلطان للخلافة العباسية في مناسبات متعددة بعد إبلاغها بأنباء الإنتصارات أو عند التماس تأييدها في بعض الإجراءات التي يتخذها السلطان ضد بعض الأمراء المحليين. ويختص بعض هذه الوثائق بإعادة توزيع الولايات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، أو بمعالجة بعض المشكلات الأيوبية ذات الصلة بالمجهود الموحد الذي يقوم به صلاح الدين ويتعرض بعضها للأوقاف أو للأخوانيات.

إن هذا الحصر الموضوعي لوثائق الروضتين لا يعني أنها تنقسم إنقساماً محدداً إلى مجموعات متميزة يعالج كلا منها موضوعاً خاصاً، ذلك أن كثيراً منها يعالج موضوعات

متعددة في وقت واحد وبخاصة ما تعلق منها بالحرب؛ إذ أنّ هذا النوع من الوثائق يعالج المشكلات السياسية في كثير من الأحوال إلى جانب الموضوعات الحربية.

ومما يلفت النظر خلال استعراضنا لهذه الوثائق، أنه من النادر أن نجد بينها وثيقة كاملة، ذلك أن أبا شامة لا يقتبس من هذه الوثائق إلّا الأجزاء المتعلقة بالموضوعات التي يتحدث عنها ليعطي هذه التقريرات العادية قوة، خاصة عندما يؤكدها بوثيقة رسمية. ومن الحالات النادرة التي يقتبس بها أبو شامة الوثيقة إقتباساً كاملاً، الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى ابن عبد المؤمن صاحب المغرب يستنصره على الفرنج[1] وذلك عندما اشتدت الحرب بينه وبينهم في موقعة عكا التي استمرت طويلاً قاسى خلالها جنوده مهاجمين أو محاصرين، الشيء الكثير من العنت. وفي هذه المناسبة ينقل أبو شامة خطاب صلاح الدين كاملاً، كما ينقل الخطاب الذي وجهه إلى رسوله[2] يرشده فيه إلى السلوك الذي يجب عليه اتباعه عند لقاء ابن عبد المؤمن.

وتبين الدراسة الموضوعية لهذه الوثائق التي أوردها أبو

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/ ١٧٠.
(٢) أبو شامة: نفس المصدر ص ١٧١ وما بعدها.

شامة في كتابه الروضتين، أنه يستخدمها لأغراض شتى، فهو قد يسوق تقريراً معيناً عن حادثة ما، يقتبسه عن ابن شداد أو عن ابن الأثير أو غيرهما. ثم يتبع هذا التقرير بآخر يقتبسه عن مصدر آخر غير السابق. وعندئذ قد يجد من الوثائق ما يؤكد هذين التقريرين، فيورد ما عثر عليه منها حتى يقوي جانب ما اقتبسه من تقريرات. وفي حالة أخرى قد يجد في الوثيقة ما يزيد الحادثة تفصيلاً وتوضيحاً، أو ما يضيف بعض الحقائق التي اغفلها المصدر الذي اقتبس عنه، وحينئذٍ يورد هذه الوثيقة لتحقّق الغرضين معاً، فتقوي التقرير المقتبس وتكمله، أو تزيده شرحاً وتفصيلاً، وفي حالة ثالثة يقتبس وثيقة معينة لتصحيح تقرير اقتبسه في بعض وقائعه، أو في جميع ما احتواه. ووجود هذه الوثيقة، في مثل هذه الحال، يشجع أبا شامة على التعرض للمصدر الذي يستمد منه تقريره بالنقد والإعتراض. وهناك استعمال رابع للوثائق وذلك عندما يعتمد المؤلف على الوثيقة وحدها للحديث عن موضوع خاص، دون أن يَسبقها تقرير أو اقتباس من مصدر آخر. من هنا نجد أن وظيفة الوثيقة هو امدادنا بحقائق جديدة في موضوعات مستقلة غير موجودة في مصادر أخرى.

ط ـ المصادر الثانوية:

إلى جانب المصادر الرئيسية التي ذكرنا، هناك مصادر

أخرى، مكتوبة أو شفهية، اعتمد عليها أبو شامة، واقتبس كلاً منها مرة أو مرتين، وهذه المصادر هي تاريخ إربل لابن المستوفى الأربلي[1]، وتاريخ حلب لكمال الدين ابن العديم[2]، وذيل تاريخ بغداد لابن سعد السمعاني[3]، وتذييل تاريخ ابن الجوزي لابن القادسي[4]، وتاريخ الغرباء الذي

---

(١) أبو البركات المبارك بن أبي الفتح أحمد اللخمي ألّف تاريخاً لمدينة إربل الواقعة على تل عال وسط سهل فسيح بين الزابين (ياقوت: معجم البلدان ١ / ١٧٣ ـ ١٧٦) في أربعة مجلدات تولى الإستيفاء ثم الوزارة بمدينة إربل. وعندما قدم التتار اعتصم بالقلعة، ولما عاد انتقل إلى الموصل وبها أقام حتى مات سنة ٦٣٧. نجد ترجمته في وفيات الأعيان ١ /٤٤٢.

(٢) كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي ولد سنة ١١٩٢/٥٨٨ وتوفي سنة ٦٦٠ /١٢٦٢م من أسرة واسعة الثراء. رحل إلى مصر عند وصول المعدل سنة ٦٥٧ ثم عاد إليها سنة ٦٥٨ حيث فجع بالدمار الذي حاق بها ولم يستطع المقام فترحل عنها إلى مصر ليموت هناك بعد سنتين أبرز مؤلفاته: بغية الطلب في تاريخ حلب وزبدة الحلب في تاريخ حلب في ثلاث مجلدات (حققه سامي الدهان ـ طبع المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤).

(٣) أبو سعد عبد الكريم بن أبي بكر بن المنصور المروزي المتوفي سنة ٥٦٢ وهو من أشهر الأسماء في عالم الحديث والتأليف له كتاب الأنساب وهو أشهر كتاب في بابه نظمه على الأبجدية وعلى القاب العلماء، وذيل تاريخ بغداد وهو تذييل على الخطيب البغدادي وغيره.
ـ شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٢ /١٠٨.

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن علي الحنبلي المتوفي سنة ٦٣٤، محدث وكتبي وعن هذين الطريقين استفاضت عنايته بالتاريخ وقد كتب تاريخ =

دخلوا مصر لابن سعيد بن يونس، وسيرة نور الدين لابن بنجة الأشتري[1]، والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وكتاب الوشي المرقوم لابن الأثير الجزري، وكتاب الافصاح ليحيى بن هبيرة، ثم من المصادر الشفهية نجد أبو شامة يذكر أبا الحسن السخاوي، والأمير أبو الفتوح ابن العاضد، والشيخ تاج الدين الكندي.

ك ـ استخدام أبي شامة للمصادر:

من خلال العرض التفصيلي للمصادر التي اعتمد عليها أبو شامة يتبين أنه وضع لنفسه مبدءاً هاماً طبّقه بكل دقة واتبعه دون انحراف، ذلك هو مبدأ الاعتماد على المصدر المحلي المعاصر في تفصيل الحوادث التي يتعرض لتسجيلها. كما

= الوزراء ضمن سلسلة الكتب بهذا الموضوع، والفاخر في ذكر حوادث أيام الإمام الناصر (٥٧٥ ـ ٦٢٢) ولعله هو نفسه الكتاب المسمى ذيل المنتظم لابن الجوزي وقد انتهى بهذا الذيل إلى سنة ٦١٤ أو سنة ٦١٦ وابن القفطي في تاريخ الحكماء يعتبر القادسي أخر ذيول الطبري.

(١) ابن بنجة أبو الفتح بنجة بن أبي الحسن علي بن بنجة الفقيه نزيل دمشق أيام نور الدين نقل عنه أبو شامة بعض الأخبار (ج ١: ص ٥٢ ـ ٩٧، ١٨٠ وج ٢ ص ١٥، ٢٧، ٤٢، ١٣٩) ولعل كتابه أول سيرة كتبت لنور الدين تمجيداً بمآثره وتقاه وجهاده.

يلاحظ أن كتاب الروضتين يتكون من أقسام واضحة، يتميز كل قسم منها بمجموعة من المصادر.

وأول هذه الأقسام يبدأ بأول الكتاب وينتهي عند تعيين عماد الدين زنكي ولاية الموصل وأعمالها سنة ٥٢١هـ. ويختص هذا القسم بتعداد مآثر نور الدين وتقدير صفاته التي جعلت منه شخصية لها مكانتها الممتازة في تاريخ الإسلام. وهذا الحديث له صفة التعميم، يتعرض فيه أبو شامة لعدالة نور الدين وشجاعته وحزمه وديانته وغير ذلك، من غير اهتمام بتفصيل حوادث معيّنة. وهو في هذا كله يعتمد على مصادر ثلاث رئيسية هي ابن الأثير وابن شداد والعماد الكاتب، فيقتبس ابن الأثير ثماني عشرة مرة، ويقتبس ابن شداد ثلاث مرات، ويقتبس العماد مثلها. وأبو شامة اعتمد على ابن الأثير أكثر من صاحبيه في هذه الفترة لتخصّصه في تاريخ أتابكة الموصل، فهو من جزيرة ابن عمر بالموصل. ولأسرته صلة قوية بأسرة زنكي، والد نور الدين، وابن آق سنقر مؤسس هذه الأسرة الزنكية. أما القسم الثاني فيبدأ بولاية زنكي لإمارة الموصل في سنة ٥٢١هـ وينتهي أثناء الحديث عن حوادث سنة ٥٥٥هـ. وهي السنة التي توفي فيها أبو يعلى المعروف بابن القلانسي، أهم المؤرخين الذين اقتبسهم أبو شامة في هذه الفترة، فانتهى الإقتباس منه عند الحديث عنها. وهذه الفترة

هامة جداً وطويلة شهدت جهاد عماد الدين زنكي حتى وفاته عند قلعة جعبر سنة ٥٤١. ثم ما جرى بعد ذلك من تقسيم ولايته بين ولديه، غازي الذي تولى الموصل، ونور الدين الذي تولى حلب، والموضوعات التي يتحدث عنها أبو شامة في هذه الفترة الطويلة تختص بالموصل ودمشق وحلب باعتبارها مراكز عواصم للقوى الرئيسية الثلاثة في هذه المنطقة، ونعني الجزيرة وجنوبي الشام وشماليّه. ويعتمد أبو شامة في حديثه عن الجزيرة على كتاب الأتابكة لابن الأثير وعن جنوبي الشام على أبا يعلي، صاحب ذيل تاريخ دمشق. وعن شمالي الشام على يحيى بن أبي طي الحلبي، فيقتبس الأول اثنتين وخمسين مرة، ويقتبس الثاني سبعاً وثلاثين مرة، ويقتبس الثالث خمس عشرة مرة: ويظهر بين هؤلاء مصادر ثانوية أخرى كالعماد الذي اقتبس منه ست مرات، وعمارة اليمني الذي اقتبس منه مرة، وابن عساكر الذي اقتبس منه مرتين. وينتهي القسم الثالث عند سنة ٥٦٢هـ، وهي السنة التي قدم فيها العماد الأصفهاني إلى الشام، حيث اتصل بخدمة نور الدين، وتتركز مصادر أبي شامة في شخصيتين: ابن الأثير، الذي لا يزال مصدراً ممتازاً، ولذا يقتبسه أبو شامة أربع عشرة مرة، لأن الحديث لا يزال عن منطقتي الشام والجزيرة، والعماد الأصفهاني الذي يبدأ في الظهور، فيقتبسه

أبو شامة أحدى عشرة مرة كما لا يزال هناك مجال للمصادر الثانوية، فيقتبس عمارة مرتين، وأسامة بن منقذ مرة، وابن عساكر مثلها، وابن شداد أربع مرات، وابن أبي طي الذي يتقهقر في هذا القسم إلى الصفوف الخلفية فيُقتبس مرة واحدة.

وينتهي القسم الرابع بنهاية الجزء الأول، أي بنهاية الحديث عن حوادث سنة ٥٧٣هـ. ويشهد هذا القسم تطورات هامة في تاريخ المنطقة، ذلك أن مجال نشاط نور الدين يتسع ليشمل فلسطين، ثم يمتد إلى مصر، بعد استنجاد وزيرها شاور به، لذا نراه يتدخل في شؤونها ثم يفتحها. وفي سنة ٥٦٩هـ ينتهي عهد نور الدين بوفاته، ويخلفه ابنه الصالح إسماعيل. ويبدأ صلاح الدين قائد نور الدين ووزير الفاطميين في الوقت ذاته، زحفه من مصر إلى الشام والجزيرة لمقابلة الصالح إسماعيل والصليبيين معاً، أي أن مركز القوة انتقل من دمشق وحلب، عاصمتي نور الدين، إلى القاهرة عاصمة صلاح الدين، ولهذا يتقهقر ابن الأثير من مركز الصدارة، كمصدر لأبي شامة في هذه الفترة، ليتقدم العماد الأصفهاني، من رجال حكومة نور الدين ثم من بعده من رجال صلاح الدين. ويشارك العماد في الصدارة يحيى بن أبي طي، على قدم المساواة، رغم زيادة عدد المقتبسات التي يأخذها أبو

شامة من العماد عنها من ابن أبي طي حيث اقتبس العماد في هذه الفترة مائة وخمساً وعشرين مرة واقتبس ابن أبي طي ستاً وثلاثين مرة، وابن الأثير ثلاثين مرة.

ويدل على أهمية ابن أبي طي في هذه الفترة، أن أبا شامة يسوق الحديث عن الحملات التي قام بها شيركوه على مصر بعد استنجاد شاور بنور الدين، معتمداً على ابن الأثير والعماد الكاتب، ويواصل هذا الحديث معتمداً عليهما حتى يتولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة للخليفة العاضد الفاطمي، ثم يعقب على هذه الأمور بقوله: «وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي في السيرة الصلاحية. فأوجب ذكره مختصراً ....». ويُتبع أبو شامة هذا بفصل كامل عن هذه القصة حيث لم يعامل أبو شامة أي مصدر من المصادر التي اعتمد عليها في كتاب الروضتين بمثل هذه المعاملة المتميزة التي تدل على تقدير خاص، باستثناء ما عقَّب به على وفاة صلاح الدين بإشارة مختصرة إلى ما تبعها من حوادث في إمبراطوريته الواسعة معتمداً في ذلك على رسائل قصيرة للعماد الأصفهاني في كتاب الإنشاء لصلاح الدين وذلك قريباً من نهاية الكتاب.

وبيدأ القسم التالي ببداية الجزء الثاني من الكتاب، أي بحوادث سنة ٥٧٢هـ وينتهي بحوادث سنة ٥٨٤هـ وهي السنة التي التحق فيها ابن شداد بخدمة صلاح الدين وليشاهد جميع معاركه الحربية. ويسجل ابن شداد ما سبق هذا التاريخ ثم ما شاهده بعد ذلك في كتاب خاص بسيرة صلاح الدين حيث يشير في مقدمته وفي أثناء الحديث من سنة ٥٨٤ هـ إلا أنه يعتبرها حداً فاصلاً بين نوعين من الكتابة التاريخية التي اشتمل عليها كتابه، فيقول: «ومن هذا التاريخ سَطَّرتُ إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان». وهذا ما يحمل أبا شامة على اتخاذ ابن شداد مصدراً أولياً يعتمد عليه ويضعه على قدم المساواة مع العماد الأصفهاني. والواقع أن العماد وابن شداد لازما صلاح الدين في حروبه وإقامته في هذه الفترة، ملازمة لا تكاد تنقطع، وقد دوّنا ما شاهداه بأعينهما عن تطورات هذه المعارك.

وفي الحوادث التي جرت ما بين سنتي ٥٧٤ و ٥٨٤، يتأكد مركز العماد كمصدر أول لأبي شامة الذي يقتبسه مائة وخمس عشرة مرة. ويبدأ ابن شداد في شق طريقه ليحتل المرتبة الثانية بين مصادر الروضتين حيث يقتبسه أبو شامة ست عشرة مرة، وبهذا يزاحم ابن أبي طي الذي يقتبس عشر مرات ليتوارى بعدها نهائياً من بين مصادر الروضتين، فلا يقتبس بعد

هذا مرة واحدة. أما ابن الأثير فيتضاءل شأنه وتقل مكانته حتى لا يتردد ذكره أكثر من أربع مرات، لأن سجل الحوادث التي يؤرخ لها أبو شامة بعيد عن الجزيرة موطن ابن الأثير.

واعتباراً من سنة ٥٨٤هـ يقتبس أبو شامة العماد الأصفهاني خمساً وتسعين مرة، وابن شداد تسعاً وستين مرة. ويلاحظ أن المقتبسات المنقولة عن العماد تتمثل في مقتطفات من كتابي البرق الشامي والفتح القسي، ومن الوثائق التي صدرت عن ديوان صلاح الدين. أما ابن شداد فلم يكن له إلّا كتاب واحد هو النوادر السلطانية.

والقسم الأخير الذي يختم به أبو شامة كتابه يتعرض فيه في اختصار لما أصاب الإمبراطورية الواسعة التي تركها صلاح الدين بعد وفاته. والمصدر الوحيد الذي يعتمد عليه أبو شامة في هذا القسم هو العماد الأصفهاني كاتب الإنشاء لصلاح الدين، الذي تضاءلت مكانته الحكومية وتدهورت أحواله، فقلّ نفوذه، ثم ترك خدمة الحكومة مصاباً بالإحباط والألم لما أصاب الدولة وأصيب هو شخصياً. وقد سجل شعوره ومشاهداته في رسائل قصار اعتمد عليها أبو شامة في تصوير الحال وهي: العتبى والعقبى، ونحلة الرحلة، وخطفة الشارق.

مـا تقدم يسمـح لنا بفهم طريقة أبي شامة في اختيار مصادره، فهو يهتم باختيار المصدر الذي تتوفر له صفتان: المحلية والمعاصرة، فابن الأثير مواطن موصلي من الجزيرة، معـاصر لكثيـر من حوادثهـا التي سجلها في تـاريخ أتـابكة المـوصل، ولـذا يقتبسه أبـو شامـة في حـوادث المـوصـل والجزيرة. وأبو يعلي مواطن دمشقي وواحد من المسؤولين الحكوميين في الشام، وهو يتحدث عما شاهده، فهو لهذا المصدر الرئيسي لتاريخ الشام، وبخاصة ما يتعلق بـدمشق وأعمالها، وابن أبي طي من أهل حلب، ولذا يعتمد عليه أبو شامة في الحديث عن تاريخها وما يتصل بها. والعماد كاتب الإنشاء لنور الدين ثم لصلاح الدين، وهو ملازم لهما متنقّل معهما. لذا يصلح ما يكتبه ليقتبسه أبو شامة في كتابه.

وبهذا اطمأن أبو شامة إلى أنه وفر لكتابه المصادر الثقة التي يُعتَدُّ بها، فاقتبسها مرتاحاً لصدقها، ولذا لم يتعرض لما يقتبسه منها بالنقد أو المناقشة أو التصحيح. فكل مصدر منها معاصر للحوادث التي يرويها، مشاهدٌ لها، أما أبو شامة فلم يعاصرها ولم يشهد شيئاً منها ولهذا لا يرضى بأن يتعرض لها بالنقد أو المناقشة، وإنمـا يكتفي بأن يصـدّر مقتبساتـه عن الحوادث التي يسوقها ويسجلها باسم المراجع الذي اعتمد عليها، محملاً المسؤولية كلها لراوي الحادثة، ولا يشذ أبو

شامة عن طريقته هذه إلا في حالة من حالتين: الأولى: إذا كانت هناك وثيقة رسمية تخالف تقريراً بعينه، والثانية: إذا هيّأت له الدراسة التي تخصّص بها في دراسة الحديث أو نحوه، طريق الحكم القطعي الصادق على ما يرى أنه موضع اعتراض أو نقص.

ومن أمثلة الحالة الأولى ما أورده ابن الأثير في كتاب الأتابكة عن بعض الأعمال الخيرية التي قام بها نور الدين محمود، وذلك عندما قال: «إن أعظم البيمارستانات التي انشأها، ذلك الموجود بدمشق. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير»[1]. وقد اقتبس أبو شامة هذه العبارة في كتابه، لكنه لم يسكت عما تضمنته، بل حاول الوصول إلى وثيقة الوقف التي تحدث عنها ابن الأثير. وقد وجدها أبو شامة وقرأها ثم علّق على كلام ابن الأثير بقوله: «وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أجده مُشعراً بذلك، وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة. وإنما صرّح بأن ما يعز وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع عنه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء» ويستمر أبو شامة في نقض كلام ابن الأثير مستنداً إلى دراسته لهذه الوثيقة فيقول: «وقد

(١) أبو شامة: الروضتين ١/ ٩.

خصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، ولا سيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين»[1].
ومن أمثلة الحالة الثانية ما ذكره العماد في أثناء الحديث عن المعارك التي دارت قرب مدينة قيسارية بعد رحيل الصليبيين إليها من عكا عام ٥٨٧هـ في شعبان، إذ يقول: «وأصبح على تبنى وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تُبنى، وزرنا بتبنى قبر أبي هريرة رضوان الله عليه»[2].

وحين يقتبس أبو شامة هذه الحادثة عن العماد، نرى أنه لا يرضى بهذا الإستطراد الذي ذكره عن وجود قبر أبي هريرة عند تُبنى، ويعقب على ذلك بقوله: «واعتمد العماد في هذا على ما اشتهر عند العامة عن ذلك. أما أهل العلم المصنّفون في أخبار الصحابة، رضوان الله عليهم، كابن سعد وغيرهم فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة ولم يذكروا غيره»[3].

ونلاحظ في كتاب الروضتين، أن أبا شامة يتوخى الدقة في اقتباسه من المصادر المختلفة. وهو في سبيل هذا يعمد إلى اقتباس هذه المصادر اقتباساً حرفياً في الكثير الغالب، فلا

(١) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.
(٢) أبو شامة: الروضتين ١٩١/٢.
(٣) أبو شامة: نفس المصدر والصفحة.

يتناولها بشيء من التغيير. وفي الحالات القليلة التي يعمد فيها إلى الاختصار أو التلخيص، أو الحذف، فأنه لا يحيد عن هذه الخطة، فهو يحافظ فيما أبقى عليه من الأصل، على حرفية العبارات التي يقتبسها. ولا يحيد أبو شامة عن هذه القاعدة إلّا عندما يقتبس العماد الأصفهاني، ذلك أنه يختصره اختصاراً شديداً قد يبقي على سطر واحد أو سطرين من صفحة كاملة مما كتبه، وهو لا يفعل ذلك دون أن يكون هناك مبرر لما يفعل، بل نراه يصرّح بالدافع له على اتباع هذه السياسة مع العماد إذ يقول:

«إلّا أن العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف يملُّ الناظر فيه، ويذهل طالب المعرفة، معرفة الوقائع عما سبق من القول ويُنسيه. فحذفت تلك الأسجاع إلّا قليلاً منها استحسنتها في مواضعها. ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع........ وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام».

وإذا كان كتاب الروضتين يسير على نظام الحوليات في المدة الواقعة بين ٥٤٢ ـ ٥٨٩هـ، أي مدة ولايتي نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، مع ما يقتضيه هذا النظام من الحديث عما يجري في نطاق سنة معينة من حوادث، على أن

يتوقف المؤرخ في حديثه عنها إذا انتهت هذه السنة ليستأنف الحديث عن تطوراتها في السنة التالية بعد الإشارة إلى بدئها.
وقد يبالغ بعض المؤرخين في اتباع هذه الطريقة في مجال السنة الواحدة، فيتحدثون عن أخبارها شهراً فشهراً، من غير ضرورة الإشعار ببدء شهر جديد، أو مع الإشعار بذلك أحياناً ومعنى هذا أن يقطع المؤرخ تقريره عن حادثة معينة بانتهاء الشهر الذي بدأت فيه، وذلك ليتحدث عن أخرى حدثت في نفس الشهر، ثم يستأنف ما قطعه في الشهر التالي وهذه هي الطريقة التي يلجأ إليها أبو يعلي في بعض الحالات في كتابه ذيل تاريخ دمشق في حوادث سنة ٥٤١هـ مثلاً. وعندما يقتبس أبو شامة مثل هذا المصدر، لا يرضى عن هذه الطريقة بل أنه يتتّبع الحادثة المعيّنة بجميع تطوراتها داخل نطاق السنة الواحدة، فيجمع هذه التطورات بعضها إلى بعض في تقرير متصل يقطعه أحياناً بالإشارة إلى المصدر فقط بمثل قوله: قال، أو قال أبو يعلي، وهو يعني بذلك أنه إنما يبدأ فقرة جديدة من الإقتباس: فإذا انتهى من هذه الحادثة المعينة بدأ غيرها، وعاملها بمثل هذه المعاملة حتى يقف عند بداية سنة جديدة.
ولتوضيح هذه القضية نسوق تقرير أبي يعلي عن نسة ٥٤٨هـ واقتباس أبي شامة. فالموضوعات التي وردت في هذا التقرير طبقاً لأبي يعلي هي على التوالي: مقتل ابن السلار، حصار

الفرنج مدينة عسقلان والتحالف الفاشل بين حلب ودمشق لمواجهة الموقف، اضطرابات داخلية في دمشق، سقوط عسقلان بيد الفرنج وصول ابن القيسراني الشاعر إلى دمشق ووفاته، وفاة الفقيه برهان الدين البلخي، تطورات هذه الإضطرابات، إعدام حيدرة وزير دمشق، اعتقال نائب الحاكم بدمشق ومقتله، أما هذه الموضوعات فقد وردت عند أبي شامة بالترتيب التالي: حصار الفرنج مدينة عسقلان وتحالف فاشل لمواجهة الموقف بين حلب ودمشق، سقوط عسقلان في يد الفرنج، اضطرابات داخلية في دمشق، تطور هذه الإضطرابات، إعدام حيدرة وزير دمشق، اعتقال نائب الحاكم بدمشق ومقتله، مقتل ابن السلار، وفاة الفقيه برهان الدين البلخي، وصول ابن القيسراني الشاعر إلى دمشق ووفاته.

وهكذا نجد أن أبا شامة يرتب الحوادث التي يتعرض لها في كتابه طبقاً لتقديره الخاص لأهميتها، دون تقيد بالترتيب الذي وردت به في الأصل الذي ينقل عنه، وذلك داخل النظام الحولي العام، كما نراه لا يرضى عن المبالغة في اتباع هذا النظام داخل إطار السنة الواحدة بل يتّبع الحادثة المعيّنة بتطوراتها المختلفة حتى يقف بها عند بداية سنة جديدة ثم يعود إلى غيرها ليعالجها بنفس الطريقة.

مختارات من كتاب الروضتين

استنجاد شاور بنور الدين زنكي وما تلا ذلك من أحداث حتى تولي صلاح الدين الأيوبي للوزارة للخليفة العاضد الفاطمي نقلاً عن كتاب السيرة الصلاحية لابن أبي طي الحلبي ولا يعرض عن الكتاب شيء باستثناء ما حفظه لنا أبو شامة في الروضتين.

الروضتين ١/١٦٤ ـ ١٧٤

فصل

قصة شاور وما جرى بسببه في الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي في السيرة الصلاحية فاحببت ذكره مختصراً.

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن زريك وزير الديار المصرية لما قتل في رمضان سنة ست وخمسين بتدبير عمه العاضد عليه أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور وقال له: لا تزلزله من ولايته فانه أسلم لك، ويقال إنه أنشد أبياتاً منها:

فـإذا تـبـدد شـمـل عـقـدكـمـا
لا تـأمـنـا مـن شـاور الـسـعـدي

وكان شاور متولي قوص والصعيد الأعلى، فلما دُفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل. ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمة العاضد فحقها. واجتمع إلى رزيك، أولاد عمته، ومن جملتهم عز الدين حسام وأشاروا عليه بعزل شاور فامتنع. ثم ألحوا عليه فأجاب. وبلغ شاوراً فجاهر بالعصيان وجمع العربان وأهل الصعيد، وزحفوا إلى القاهرة، وخرج إليه جماعة من امرائها كانوا كاتبوه فخرج رزيك نصف الليل فضلّ الطريق وتاه، فوقع عند أطفيح. وثَمَّ بيوت عرب، فقبضوا عليه وحُمِل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلّمها وأخرجت إليه خلع الوزارة وتمَّ أمره.

ولما حصل رزيك عند شاور أكرمه، وصلـب الذي أتى به ونادى عليه هذا جزاء من لا يرعى الجميل، وكان للصالح إليه أحسان وتفرق آل رزيك في البلاد. ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رزيك بأموال وصار إلى حماه فأقام بها واشترى القرى ولم يزل بها إلى أن مات. وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفوًا له وردّوها عليه، ثم أراد تقي الدين أخذها منه فقال: من العجب أن الفرنجي يفي لي بردّها وتأخذها أنت مني. فكفَّ عنه.

قال: وتمكن شاور، وكان له ثلاثة أولاد؛ طي والكامل وسليمان، فتبسطوا على الناس وتعاظموا. فمجّتهم الأنفس. وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك. فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده، أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الوزارة. واتصل ذلك بطي بن شاور فدخل على أبيه وقال له: أنت غافل ومُلهم وضرغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رزيك واستخلفا له جماعة من الأمراء ولا يمكن تلافي حالك إلاّ بقتل رزيك، فقال له شاور: إن الصالح أولاني جميلاً، وبسببه حللت هذا المحل. فتركه ولده طي ودخل على رزيك فقتله في سجنه. وسمع شاور بذلك فقامت قيامته.

ونمي الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم. فثاروا، وأثارا من استحلفاه من الأمراء وزحفا بالعساكر إلى شاور فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام، وأدرك ضرغام ولديه طياً وسليمان فقتلهما وأسر الكامل،فأخذه ملهم واعتقله عنده، وأراد ضرغام قتله فمنعه عنه ملهم وحفظ له جميلاً كان قد فعله معه.

واستقر أمر ضرغام في الوزارة وخُلع عليه ولُقّب بالملك المنصور. ولما استقرّ به الأمر بلغه أن جماعة من الوزراء

حسدوه واستصغروه، وكاتبوا شاوراً، وكان صار إلى الشام. فأخذ في إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلاً فقتلهم جميعاً ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازلهم. وقيل أنه قتل منهم سبعين أميراً. ويقال أنه جعلهم في توابيت، وكتب على كل تابوت أسم صاحبه فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها، لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء.

وأما شاور فأنه لما خرج من القاهرة ، سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحقّقه قتل ولديه ولما وصل إلى بُصرى، اتصل خبره بنور الدين. فندب جماعة إلى تلقيه وأنزله في جوسق الميدان الأخضر. وأحسن ضيافته واكرامه. ثم بعد سبعة أيام من مقدمه، أحضر نور الدين ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل وسلّموا عليه، وعرّفوه أعذارنا في التقصير في حقه، وسلوه فيما قدِم وما حاجته. فإن كان ورد إلينا مختاراً للإقامة أفرَدْنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأربه وأوده، ونكون عوناً له على زمانه وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة إليه بالرسالة. فشكر إحسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك. فسأله القوم الجواب. فقال: إذا لم يبيت الرأي جاء فطيراً. فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه ما دار بينه وبينه،

فأمرهم بالعود إليه من غد ذلك اليوم. ففعلوا، وطلبوا الجواب. فسكت أيضاً وأطال. ثم قال: إن رأى نور الدين أطال الله بقاه، الإجتماع بي فله عُلوّ الرأي، فعرفوا نور الدين بمقالته. فأجاب نور الدين أن يكون الإجتماع على ظهر بالميدان الأخضر.

وركب نور الدين من الغد في وجوه دولته وخواص مملكته في أحسن زي وأكمل شارة. فلّما دخل الميدان، ركب شاور من الجوسق والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط ولم يترجل أحد منهما لصاحبه ثم سارا من موضع اجتماعهما، وهو نصف الميدان، إلى آخره. ثم انفصلا من هناك وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر. وأما ضرغام فإنه حين استقرّ به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين على يد علم الملك بن النحاس يظهر به الطاعة ويعرّض بخذلان شاور. فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول في الظاهر. وهو مع شاور في الباطن. وأجاب عن الكتاب، وأنفصل علم الملك عن دمشق فلما كان بظاهر الكرك أخذه فيليب بن الرفيق الفرنجي وحصل على جميع ما كان معه وانهزم علم الملك بنفسه.

وفي هذه الأيام انفذ نور الدين، واستحصر أسد الدين

شيركوه من أقطاعه، من الرحبة، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين، وتبرّك بميمون نقيبته لأنه لم يرسله في أمر إلاّ نجح. ولم يولجه في مضيف إلاّ انفتح. ولما حضر أسد الدين إلى دمشق، خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء في أمر مصر، وأمره بالإستعداد. وكان نور الدين قد أزاح علّة العسكر الذي يريد تسييره إلى مصر. فخرج من يومه.

وكان شاور قد اطمع نور الدين في أموال مصر، ورغّبه في ملكها وأنه إذا ملكها كان من قبله فيها ولما بلغ شاور استتباب أمر العسكر، سأل عن المقدّم عليه فقيل له: أسد الدين شيركوه. فلم يطب له ذلك لأنه ظن أن التقدمة ستكون له. فلما زوحم بهذا القود سقط في يده، وفتّ في عضده ولم يجد بدّاً من المسير. فخرج واجتمع بأسد الدين وسارا جميعاً حتى وصلوا أطراف البلاد المصرية ونزلوا على تل في الحوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسطة وضربوا خيامهم هناك.

ولما اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية، جمع أمراء مصر واستشارهم. فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدة وتلقى العساكر الشامية بصدر، وهو على يومين من القاهرة فأنهم لا يثبتون لكونهم خرجوا من البريّة ضعفاء، ولمكان قلة

الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من أيلة مسيرة ثلاثة أيام. فلم يروا ذلك واختاروا أن يلقوهم على بلبيس فأمر ضرغام الأمراء بالخروج فخرجوا في أحسن زي وأكمل عدة والمقدّم عليهم ناصر الدين وملهم أخو ضرغام وجاؤوا حتى حاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلاً عليه. ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات. وسدّوا منها الطرقات قال لشاور: يا هذا لقد أرهقتنا وغررتنا وقلت: ليس بمصر عساكر. فجئنا في هذه الشرذمة. فقال له شاور: لا يهولنك ما تشاهده من كثرة الجموع فأكثرها من الحاكة من الفلاحين الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا. فما ظنك بهم إذا حمي الوطيس وكلبت الحرب. وأما الأمراء فان كتبهم عندي، وعهودهم معي وسترى ذلك إذا لقيناهم. ثم قال أريد أن تأمر العساكر بالإستعداد والركوب. ففعل ونهاهم شاور عن القتال. ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار والتهب الحديد على أجساد الرجال فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار وخلعوا السلاح ونزلوا عن الخيول وجلسوا في الظل. فأمر شاور الفاسي في الحملة. فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق عنانه وولى منهزماً. وتركوا خيامهم وأموالهم ليس بها حافظ. فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين. ولم يكن

شاور من تقييدهم والإحتياط عليم فهربوا. وساق أسد الدين في أثر الناس. ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياماً.

وأرسل شاور العاضد في إصلاح الحال وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة فأذن له. وكان ضرغام صار إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمني لأسأله عمّا أفعل، فلم يُجِبْه أحد. فذهب على وجهه منهزماً وخرج باب زويلة والعامة تلعنه وتصيح عليه. فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله. فقال له ضرغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مُناك. فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه وأرداه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين وأعلمه بما جرى بينهما. فصعب على أسد الدين وأوجعه ضرباً وأراد قتله فشفع فيه شاور. ودخل شاور القاهرة فقتل ملهماً أخا ضرغام عند بركة الفيل. وخرج ابنه الكامل من دار ملهم وكان معتقلاً فيها. وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضاً معتقلاً فيها معه. واستقام أمر شاور في الوزارة وأقام أسد الدين على المقسم ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين. وأرسل إليه يقول: لقد خال مقامنا في الخيم وقد ضجر العسكر من الحر والغبار. فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله وفي دعته. فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه أن نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده ويكون لك ثلث فعل البلاد، والثلث الثاني لشاور

وللعسكر، والثلث الثالث لصاحب القصر يصرفه في مصالحه.
فقال شاور: أنا ما قررت شيئاً مما تقول: أنا طلبت نجدة من نور الدين. فإذا انقضى شغلي عادوا إلى الشام. وقد سيّرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا. وأنا انفصل عن نور الدين، فقال أسد الدين: أنا لا يمكنني مخالفة نور الدين ولا أقدر على الإنصراف إلّا بامضاء أمره: فأمر شاور بإغلاق باب القاهرة وأخذ في الإستعداد للحصار واستعد أسد الدين أيضاً وسيّر صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بلبيس لجمع الغلال والاتبان والأحطاب وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة. وأخذ في قتال القاهرة.

وكاتب شاور ملك الفرنج مرّي يستنجده ويقول له: أن شيركوه معي نجدة على ضرغام فلّما حصلوا في البلاد طمعوا فيها. ومتى ملكوها مضافة إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار. وضمن له في كل مرحلة يرحلها ألى ديار مصر ألف دينار، وقرّر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاستباريته، فخرج مرّي من عسقلان في جموعه إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحلة وقبض عنها سبعاً وعشرين ألف دينار.

ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة اجفل عنها إلى بلبيس وانضاف إليه من أهلها الكنانية وخرج شاور في

عساكر مصر واجتمع بالفرنج وجاء حتى خيّم على بلبيس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين يباكر الحرب ويراوحها. وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر. وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين.

وكان اتصل نور الدين، وهوبدمشق، خبرسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور، فكاتب الأطراف بقدوم العساكر. فقدم عليه عساكر الشرق جميعها واجتمعوا بأرض حلب. فنزل بهم مجد الدين بن الداية، وكان نائب نور الدين بحلب، إلى جهة حازم ونزل على ارتاح. وخرج نور الدين من دمشق وشنّ الغارة على الساحل وقتل وأسر عالماً عظيماً. ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الأكراد. فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة، ونزل في مرجه. فخرج إليه الفرنج الإخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره وقتلوا جماعة من المسلمين، وكان عكسر نور الدين غافلاً فلم يتماسك الناس وساروا على وجوههم. وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعسكره. على ارتاح. وكان أخوه نصر الدين مع الفرنج. فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين. فلما قرب منه نزل وقبّل الأرض بين يديه. فلم يلتفت إليه. قتم على وجهه واصطفت الناس للحرب .فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ثم عادت فوجدت راجلها

جميعه قد قتل والخيل قد أطبقت عليهم فنزلوا عن الخيول والقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان. فأخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي. وسار إلى حارم ففتحها. وأراد النزل على أنطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن في مصر من المسلمين. فانحرف قاصداً لدمشق ونزل على بانياس فافتتحها. وأغار على بلد طبرية وجمع أعلام الفرنج وشعافهم وجعلها في عيبة وسلمها إلى نجّاب وقال له: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين وتعطيه هذه الأعلام والشعاف وتأمره بنشرها على أسوار بلبيس فإن ذلك ما يفت في أعضاد الكفّار ويدخل الوهن عليهم. ففعل ذلك.

فلما رأى الفرنج الأعلام والسعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم وسألوا شاور الاذن والانفصال فانزعج شاور لذلك وخاف من عاقبة الأمر وسألهم التمهل أياماً. وجمع أمراءه للمشورة فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين وتكفّل له إتمام الصلح شمس الخلافة. فأنفذه إليه. فتم الصلح على يديه على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

وحكي أن شاور أرسل إلى أسد الدين وهو محصور ببلبيس يقول له: اعلم أنني أبقيت عليك ولم أمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك. وإنما فعلت ذلك لأمرين:

أحدهما: أني ما اختار أن أكسر جاه المسلمين وأقوي الفرنج عليهم. والثاني أني خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها وقالوا: هذه لنا لأننا فتحناها بسيوفنا. وما من يوم كان يمضي إلاّ وأنا انفذ إلى كبار الفرنج الجملة من الملك وأسألهم أن يكسروا همّة الملك عن الزحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلاثة أيام. ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل. وسار أسد الدين قاصداً الشام. وجعل مسيره على البرية. واتفق أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك تأوّل ليمينه التي حلفها لأسد الدين وقال: أنا حلفت أني ما الحق أسد الدين ولا عسكره في البر وأنا أريد أن الحقه في البحر. وسار في يوم واحد إلى عسقلان خرج منها إلى الكرك والشوبك وجمع عسكره المقيم هناك وقعد مرتقباً خروج أسد الدين من البرية ليوقع به. وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحدس والتخمين فسلك طريقاً من خلف المكان الذي كان فيه أرناط شقّ إلى الغور، وخرج من البلقاء، وسلّمه الله تعالى منه. ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين وأخبره بالأحوال وأعلمه بضعف ديار مصر ورغبّه فيها، وشوّقه إلى ملكها فرغب فيها نور الدين وأمره بتجنيد الأجناد واستخدام الرجال.

وأما شاور فأنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم، عاد إلى القاهرة ولم يكن له هم إلاّ تتبّع من علم أن

بينه وبين أسد الدين معرفة أو صحبة. كان استفسد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشتَّرين الكردي واقطعه شطنوف. وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشرّد آخرين ثم توجه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية وكتم أخباره. فما راع شاور إلّا ورود كتاب مرّي ملك الفرنج يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر. فطلب شاور منه إعادة النجدة، والمقرّر من المال يصل إليه على ما كان يصل إليه في العام الماضي فسار مرّي في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر. وكان أسد الدين سائراً في البر. فسبقه الفرنج ونزلوا على ظاهر بلبيس. وخرج شاور بعساكر مصر فاجتمع بالملك وقعدوا جميعاً بانتظار أسد الديه. وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبيس، فنكَب عن طريقهم، وأمّ الجبل وخرج على أطفيح وهي في الجنوب من مصر وشنّ الغارة هناك. واتصل بشاور خبره فسار في عساكره والفرنج في صحبته يقفون أثره، واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونه من صعيد مصر. وتحيّل في مراكب ركبها وعدّى إلى البر الغربي. ولما استكمل تعديته أدرك شاور بعض ساقته ومنقطعي عسكريته فأوقع بهم. واحضر شاور أيضاً مراكب وقطع النيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج.

وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم فيها مقدار خمسين يوماً. واستمال قوماً يقال لهم: الأشراف الجعفريين والطلحيين والقرشيين. فانفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلاّ هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها. ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه، وما اؤمل منك إلاّ نصر الأسلاح فقط. وهو أن العدو وقد جعل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة، وخلاصه عز وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه وننتهز منه الفرصة التي قد امكنت، والغنيمة التي قد كتبت، فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً. فلما صار الرسول إلى شاور وأدّى الرسالة أقربه فقُتِل، وقال: ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفرج. ثم أعلم الفرنج بما أرسل إليه به أسد الدين وأعلمهم بما أجابه وجدّد أيماناً وثقوا بها. وبلغ ذلك أسد الدين فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي. وقال: لعنة الله لو أطاعني لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج.

ونزل شاور في اللوق والمقسم، وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة. وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن ينحو من خلف عسكر أسد الدين. ولما رأى أسد الدين ذلك

كتب إلى أهل الإسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم. فقاموا معه وأمّروا عليهم نجم الدين بن مصال، وهو ابن أحد وزراء المصريين وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفياً فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الشريف الادريسي نزيل حلب، قال: كنت بالإسكندرية يومئذٍ فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له إني أخبرك أن السلاح واصل، وكان انفذ لأسد الدين خزانة من السلاح. قال: فسبقتها قبل يومين، وحضرت بين يدي أسد الدين وأعطيته الكتاب وشافهته برسالة ابن مصال في معنى السلاح والآلات، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه ابن عوف. قال وبقينا على الجيزة يومين. فوصل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أسد بقرب شاور منه ويأمره بالنجاة. فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دلجة. فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت. ونزل الناس لتعشية الدواب فلم تتم عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل. وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا فإذا الجاووش ينادي في الناس بالرجوع. وعاد أسد الدين إلى دلجة فنزل عليها ونزل شاور على الأشمونين. وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبية فاصبحوا على ذلك والتقوا فقتل من

أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة وانهزموا. وكان أسد الدين قد فرّق أصحابه فريقين؛ فريقاً معه وفريقاً جعله مع صلاح الدين وانفذه ليأتي من خلف عساكر شاور، فدخل الضعف من هذا الطريق. ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا وعلموا أنه لا منجى لهم إلّا الصبر وتحالفوا على الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم. فلم تزل الحرب قائمة إلى الليل، فولّت عساكر الافرنج والمصريين الأدبار، وكان مرّي ملك الفرنج يؤسر، وسار شاور ومن سلم معه إلى منية ابن خصيب.

وسار أسد الدين على الفيوم إلى الإسكندرية فدخلها ونزل القصر وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم. وكان فيها ابن الزبير متولياً ديوانها، فحمل إلى أسد الدين الأموال وقوّاه بالسلاح. وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه فربّما تأذى بالحصار. فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنده جماعة من العسكر ومن به مرض أو جرح أو ضعف، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصعيد.

ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال. وبذل أهلها في نصرة الملك الناصر

أموالهم وأنفسهم، وقتل منهم جماعة عظيمة. ولما صار أسد الدين بالصعيد حصل من تلك البلاد أموالاً عظيمة. ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان. واتصل به اشتداد الأمر على الإسكندرية فرحل من قوص إلى جهتها واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد وبلغ ذلك شاوراً فرحل هو والفرنج واضطر إلى الصلح .وضجرت الفرنج أيضاً فتوسط ملك الفرنج فتقرر أمر الصلح على أن شاوراً يحمل إلى أسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفرة، ثم يعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار. ويعود كل منهم إلى بلاده. وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فانفذ له عدة مراكب.

قال الأدريسي: كنت في جملة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى ميناء عكا، أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مرّي فاطلقنا، فخرجنا إلى دمشق.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بأن لا يتعرض لهم بسوء واجتمع بعمه أسد الدين. ثم انقذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيّق عليهم، وتتبع أهل الإسكندرية. واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاور نقض الأيمان. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ

إلينا. فقال: ليس له ذلك وانفذ إلى شاور وقال له: إن الأيمان جرت على أن لا تتعرض لأحد من أهل مصر ولا الإسكندرية وألزمه يميناً أخرى في أن لا يتعرض لأحد ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين.

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال، خافوا من شاور، فأخذوا في الرحيل إلى الشام، واتصل ذلك بشاور فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى أيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل.

والهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم في مصر خاطر فقصدهـا. فراسل الملك مرّي وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك أن لا يدخل إليهم ولا يتعرض لهم. فامتنع الملك ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر. وربما اجتمعا عليه. فلم يجد بداً من اليمين فحلف وحلف أصحابه.

وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدوي منها لأنه شاهدها وشاهد مغلّاتها فوجدها أمراً عظيماً. فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه واقطعه حمص وأعمالها.

وحدثني أبي ـ رحمه الله ـ قال: حدثني غير واحد أن

شاوراً كاتب نور الدين في ذلك وضمن له أن يحمل في كل سنة عن ديار مصر مالاً مصانعة. ولما بلغ شاور أن نور الدين صرف همة أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها انفذ رسولاً مهدية سنية وأصحبه كتاباً حسناً أوّله (ورد كتاب استدعى شكري وحمدي واستخلص من الصفاء مما عندي، واستفرغ في الثناء على مرسله مهدي، فكأنما استملت معانيه مما عندي واشتملت على حقائق قعدي، وسررت للإسلام وأهله والدين الذي وعد الله أن يظهره على الدين كله بأن يكون مثله ملكاً من ملوكه يرجع إليه في عقده وحله وتشير الأصابع وتعقد الخناصر على علو محله والله يزيده بمكانته تثبتاً وقوة وتحقق على يديه مخايل النصر المرجوة. فما أسعد رأساً دلّ على نصرة الكلمة ودعا إلى سبيل الفئة المسلمة، ووفرّ على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة. وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر مني، وباق منه على ما نقل عني لا أتغيّر عن المصلحة فيه ولا أعدل عما أظهره منه لما أخفيه، ولا استكثر كبيراً أصل إليه وأتوصل به لما سبق الملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولاً وفعلاً ونصرة كانت في هجير الخطوب برداً وظلاً. وانعم ووجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها الكدر، ويحوطها فلا تطرق إليه جوانبها الغير. ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلاّ انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة

باليمين الموصوفة، مع أن قوله كيمينه وكتابه كصفحة يمينه، والثقة واقعة على كل حال والمحبة له توجب الإحتراس على الوداد من تطرق أسباب الإختلال).

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مرّي ملك الفرنج في مصر، وعزم على الدخول إليها والإستيلاء عليها وذلك لما انكشف له من عوارها وظهر له ضعف من بقي فيها، فجمع ملوك الفرنج وكبراء الدولة والإسبتارية وتشاوروا. فجرت بينهم في ذلك خطوب ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية، فأحضر وزيره وأمره باقطاع مصر لخيّالته وفرق قراها على أجناده. وكان، لعنه الله، لما دخل ديار مصر أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها وتعرّف له خبر ارتفاعها. ثم سار حتى نزل الداروم فقامت قيامة شاور وسأله متلكّأ عليه ثم استلان جانبه وضمن له رضيخة على أن يورّي عنهم ولا يكشف لشاور حالهم، ويقال أن الملك اقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتممّ على المصريين الحيلة ويعلم شاور أنه إنما قصد مصر للخدمة. ففعل بذلك بدران. ولما سمع ذلك شاور أشفق منه واحضر الأمير شمس الخلافة مجد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشي ولم ينصحني، وأنا مواثق بك، فأريد أن تخرج وتكشف لي حال الفرنج. فسار شمس الخلافة إلى مرّي وكان بينهما مؤالفة. فلما دخل على الملك قال له: مرحباً

بشمس الخلافة. فقال: مرحباً بالملك الغدّار، وإلاّ ما الذي أقدمك إلينا. قال: اتصل بي أن الفقيه عيسى زوّج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوّج الكامل أخت صلاح الدين. فقلنا: هذا عمل علينا. فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد، فقال له الملك: الصحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على أرائنا وخرجوا طامعين في بلادكم فخفنا من ذلك وخرجنا لنتوّسط الأمر بينكم وبينهم فقال شمس الخلافة: فأيُّ شيء قد طلبوا؟ قال: الفي ألف دينار، فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم كتب إلى شاور يقول: إني قصدت الخدمة على ما وفّرته لي من العطا في كل عام. فأجابه شاور أن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، أو ان أقدم عليّ عدو: أمّا مع خلو بالي من الأعداء، فلا حاجة لي إليك، ولا لك عندي مقرر. فأجاب مرّي أن لا بُدّ من حضوري وأخذي المقرّر. فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان وأنه قد طمع في البلاد. فأخذ في تجنيد الأجناد وحشد العسكر إلى القاهرة. وانفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وميرة وعدّة.

ثم أن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا يلوي على قول حتى خيّم على بلبيس في صفر. وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النحاس، وابن الخيّاط يحيى وابن قرجلة. وأرسل إلى طي بن شاور، وكان ببلبيس وقال له: اين تنزل؟ قال: على أسنّة الرماح. وقال له اتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها؟ فأرسل إليه مرّي: نعم هي جبنة والقاهرة زبدة ثم قاتل بلبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف وقتل من أهلها خلقاً عظيماً. وخرّب أكثرها. وأحرق حلل أدرها. ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد، وحشروا في مكان واحد. وحمل في وسطهم برمحه ففرّقهم فرقتين. فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره. وقال لفرقته: قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فأني قد ملكتها بلا شك. ووقف إلى أن عدّى أكثرهم من النيل إلى جهة منية حمل. وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم. وبقي أهل بلبيس الذي أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير، لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف فعل بلبيس، على كثرته، على فكاك الأسرى. وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه.

ولما اتصل شاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل

والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرجال والعدد، وجعلوها لهم ظهراً، أشفق من ذلك وطلب الاذن على العاضد. فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: إعلم أن البلاد قد ملكت علينا. ولم يبق إلاّ أن تكتب إلى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته وعونه. فكتب جميع ذلك. وأرسل شاور طيَّ تلك الكتب كتباً، وسخم أعاليها بالمداد. قال: وحدثني شمس الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختتار، قال: إنما كتب هذا الكتاب برأي أبي شمس الخلافة لأنه عندما رجع من عند مرّي، لعنه الله، بعد أخذ بلبيس، اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أفضي به إليك إلاّ بعد أن تحلف لي أنك لا تطلع أباك عليه. فلما حلف له. قال له: إن أباك قد وطّن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد والزمه أن يكتب إلى نور الدين فليس لهذا الأمر غيره، فقصده الكامل وكتب الكتاب. فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً وانفذ أسد الدين، وكان ذلك من مناه. وأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة. وبرسالة سرّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيّنها، وأن يكتم ذلك عن شاور.

وأمّا الفرنج فساروا إلى جهة مصر. وأمر شاور بإحراق

مصر، وأمر أهلها فخرج الناس على وجوههم. وهجّوا إلى بلاد مصر. وبلغت أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت. وأحرقت مصر في تاسع صفر. وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً، ثم إن الفرنج لعنهم الله. نزلوا في بركة الحبش وانبثّت أخبارهم في الأطراف، وتخطّفوا من ظفروا به، فانفذ شاور شمس الخلافة إلى مرّي لعنه الله. فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخاناً في السماء، قال: نعم. قال: هذا دخان مصر، ما أتيت إلاّ وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط مُرّقت فيها عشرة الاف مشعل وما بقي فيها ما يؤمّل بقاؤه ونفعه. فحُلَّ الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي ،وكن كلما قلت لك إنزل في مكان تقدمت إلى آخر غيره. وما بقي لك إلاّ أن تنزل بالقاهرة. فقال: هو كما تقول ولا بُدَّ من نزول القاهرة ومعي فرنج ما وراء البحر قد طمعوا في أخذها. ثم رحل فنزل على القاهرة ممّا يلي باب البرقية نزولاً قارب به البلد، حتى صارت سهام البرح تقع في خيمته. فقاتلوا البلد أياماً. فلما تيقّن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة، والمغاورة والمدافعة إلى أن تصل عساكر الشام. فأنفذ شمس الخلافة إلى مرّي، لعنه الله تعالى، برسالة طويلة، فبلّ بها في غاربه ودار في حواليه

وفي ضمنها (إن هذا بلد عظيم وفيه خلف كثير، ولايمكـن تسليمه البتّة. ولا أخذه، إلاّ بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصل شيئاً أدفعه لـك، فيحصل لك عفواً). فاستقرت المصانعة على أربعمائة ألف دينار، وقبل ألفي ألف دينار، يُعجّلُ له منها مائة ألف دينار فأجاب مرّي إلى ذلك وانعقدت الهدنة وحلف مرّي ورحل إلى بركة الحبش، وحمل إليه شاور مائة ألف دينار في عدة دفعات سوّف فيها الأوقات، ثم أخذ يمطله بالباقي انتظاراً لقـدوم العساكر ويوهم أنه يجمع له الأموال، فلم يشعر الفرنج إلاّ بهجوم عسكر الشام عليهم. فلما رأوهم رحلوا إلى بلبيس. ونزل أسد الدين بالمقسم. ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس، واتّبعه أسد الدين ونزل على بلبيس.

وكان لما اتصل بشاوروصول أسد الدين إلى صدر، انفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال. فصار إليه واجتمع به وقال: قد قلّ علينا المال، فقال ملك الفرنج: اطلق منه شيئاً. قال: اشتهي أن تهب لي النصف. قال: قد فعلت: فقال شمس الخلافة: ما بلغني أن ملكاً في مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم في مثل حالنا. فقال ملك الفرنج: أنا أعلم أنك رجل عاقل، وأن شاور

ملك، وأنكما ما سألتماني أن أهبكما هذا المال العظيم إلّا لأمر قد حدث. فقال له: صدقت. هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نصرة لنا. وما بقي لك مقام. وشاور يقول لك أرى أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لك ولنا. وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشيء وحملنا الباقي إليك متى قدرنا. وإن نحن أخرجنا في رضاهم أكثر من هذا المال. عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال ملك الفرنج: أنا راضٍ بذلك، وإن بقي عليَّ شيء حملته إليكم. وعوّل على الرحيل. فقال له: : بعد أن تطلق طي بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئاً. فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق. وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخِدَم الكثيرة. ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت، وأن ندرك الفرنـج ونوقع بهم. فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البر الغربي .وليس لهم وزر. وأما الآن فلا، لأنهم على البر المتصل ببلادهم. ونحن قد خرجنا من البر في أسوأ حال من الضعف والتعب وقد كفانا الله شرهم، ونحن إلى الراحة والإستجمام أحوج.

ولما نزل أسد الـدين باللوق، أرسل له العاضد هدية

عظيمة، وخِلعاً كثيرة. وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه ثم أنه خرج إليه في الليل سراً متنكراً واجتمع به في خيمته وافضى إليه بأمور كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره، وكان شاور قد رأى ليلة نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة، فوجد على سرير ملكه رجلاً وبين يديه دواة الوزارة، وهو يوّقع منها بأقلامه. فسأل عنه. فقيل: هذا محمد رسول الله ﷺ. ولما حصل أسد الدين بالديار المصرية وانفصل عنها الفرنج. أمنت البلاد وتراجع الناس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعثه الفرنج وأفسدوه. وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين. فتلقاهم بالرحب والسعة وأحسن إليهم. أمّا شاور فإنه أخذ في التودّد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتى استحوذ على قلبه، ونوى تبقيته في ملكه، وصفا له قلبه حتى انفذ إليه سراً: أحرس نفسك عساكر الشام. وأما عسكر الشام فإنهم لما رأوا طيب بلاد مصر وكثرة خيرها وسعة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها. واختاروا سكناها، ورغبوا فيها رغبة عظيمة فقوي طمع أسد في الإستيلاء عليها والاستبداد بملكها. ثم علم أنه لا يتم له ذلك وشاور فيها. فأخذ في أعمال الحيلة عليه. وكان العاضد قد تقدم إليه بقتله. فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور، وقال

لهم : قد علمتم رغبتي في هذه البلاد، ومحبتي لها، وحرصي عليها، لا سيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندي وعلمت أنهم قد كشفوا عورتها. وملكوا مسالك رفعتها. وتيقنت اني متى خرجت منها عادوا إليها واحتووا عليها. وهي معظم دار الإسلام وحلوبة بيت مالهم، وقد قوي عندي أن أثب عليها قبل وثوبهم وأملكها قبل مملكتهم واتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم، ويغرّهم ويضرب بيننا وبينهم. وقد ضيّع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوّى بها الفرنج علينا. وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قد قلّ رجالها، وهلكت أبطالها. فتجلّت الأراء بين الأمراء، أنه لا يتم لهم أمر إلّا بعد القبض على شاور وتفرّقوا على إيقاع القبض به.

وكان شاور يركب في الأبهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعدّة الحسنة، والآلة الجميلة، على عادتهم الأولى، وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حمل في موكبه الطبل والبوق، وكان شاور قليل الركوب، فجعل الأمراء يترصدونّه. ورأى أسد قبل قبض شاور بليلة، كأن شاوراً دخل إليه في داره وناوله سيفه وعمامته، فتأوّله أسد الدين بالقبض عليه وأخذ منصبه، ثم إن شاوراً ركب يوماً في ابهته وجلالته فلما عاينه الأمراء هابوه واحجموا عنه. وكان يوماً عظيم

الضباب، وكان خروج شاور من باب القنطرة للسلام على أسد الدين. فتقدم صلاح الدين فسلّم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره ثم مدّ يده إلى تلابيبه وصاح عليه فرجلّه. ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم ووقعوا في عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله، وقتلوا منهم جماعة وحمل الملك الناصر شاوراً راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين وفي الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور فانفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال وانفذ رأسه إلى القصر. وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر، وخلع العاضد على أسد الدين وقلّده الوزارة. وانفذ إليه طبق فضة فيه رأس الكامل ابن شاور ورؤوس أولاد إخوته. ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحساناً لمعانيه واستظرافاً لما أودع من بديع الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده وجلس للهناء بذلك. وأنشده الشعراء في فتحها عدة أشعار. غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وزرَ

للعاضد واستبد بالأمر في ذلك الصقع أمضّه ذلك، واقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة، وأخذ في الفكرة في أمره، وسهر الليالي، وافضى بسره إلى مجد الدين ابن الداية.

حدثني جماعة عن شمس الدين علي بن الداية أخي مجد الدين، وحدثني الموفّق بن محمود النحاس الفقيه الحلبي، وقد جرى ذكر فتح مصر. وأن نور الدين ابتهج به فقال: والله ما ابتهج به. لقد كان ودّه أن لا يفتح وأن لا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه. ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في الفاظه ووجهه ولقد عمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيّأ له، لا سيّما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه، واهتم لذلك حتى أفضى عليه الهم. ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً، وعليه فضله محسوباً لما صبر على ما جرى، ولا اغضى الملك العادل على القذى. ولقد كاتب العاضد عدة دفعات في أمر الأسد والصلاح فلم يحصل له فيهما النجاح. وكثيراً ما يوجد في كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بأنفاذ أسد الدين. ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال. فمن بعض مكاتباته (ولقد افتقر العبد إلى بعثته وأعوز عسكره يمن نقيبته، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين الضلال بشهابه الثاقب،

ويصمي مُقَل الشرك بسهمه النافذ الصائب). قلت: لعل نور الدين، رحمه الله، إنما اقلقه من ذلك كون أسد الدين وَزَرَله، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يُفسدوا جنده عليه بذلك السبب، هذا إن صحَّ ما قاله ابن أبي طي والله أعلم.

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغير على أحد شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم إلى أن انقضت أيامه وفنيت أعوامه. وكان قرماً يحب أكل اللحم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التخم، واتصلت به مرضاته إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه. ويقال: أنه أكل في ذلك اليوم مضيرة ودخل الحمّام. فلما خرج فيها أصابه الخناق. قال: كان شجاعاً بارعاً، قوياً، جلداً في ذاته، شديداً على الكفار، وطأته عظيمة. في ذات الله صولته، عفيفاً، ديناً، كثير الخير. وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الايثار، حدباً على أهله وأقاربه. وكان فيه أمساك وخلّف مالاً كثيراً. وخلّف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً. وخلّف جماعة من الغلمان خمسمائة مملوك وهم الأسدية. وهو كان مشيّداً قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية. وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت على اقطاع مبلغه تسعماية دينار. وتنقّل إلى أن ملك الدار المصرية. وعقد له العزاء ثلاثة

أيام. قلت: وإليه تنسب المدرسة الأسدية بالشرقي القبلي ظاهر دمشق. وهي المطلة على الميدان الأخضر، وهي على الطائفتين الحنفية والشافعية، والخانقاه الأسدية داخل باب الجابية بدرب الهاشميين.

قال ابن أبي طي: وساعة وفاته وقع الإختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامي. ومالت الأسدية إلى صلاح الدين. وفي تلك الساعة انفذ العاضد وسأل من يصلح للوزارة؟ فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين. فانفذ إليه وأحضره، وخاطبه في تولي الوزراة فامتنع عن ذلك وأشار بولاية الملك الناصر. وكان الحارمي أولاً قد رغب في الوزارة وتحدث فيها وحصل ما يحتاجه. فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن باروق وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فيفوته وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به، لأنها لما كانت في ابن أخته كانت في بيته. وكان صلاح الدين قدوة من العاضد بموضع وأعجبه عقله وسداد رأيه، وشجاعته وإقدامه على شاور وفي موكبه، وأنه قتله حين جاءه أمره، ولم يتربص ولا توقّف. فسارع إلى تقليده الوزارة. وما خرج شهاب الدين من حضرة العاضد إلاّ وخلع الوزارة قد سبقته إلى الملك الناصر. وكانت خلعة الوزارة عمامة بيضاء تنيسيٌ بطرز ذهب، وثوب دبيقي بطرازي ذهب،

وجبة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب، وطيلسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلى مجوهر قيمته خمسمائة ألف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية الآف دينار، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها. وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رقبة الحجر مشدّة بيضاء وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر. وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهرة وفي رأسها مشدّة بيضاء بأعلام ذهب. ومع الخلعة عدة بقبح، وعدة من الخيل، وأشياء أخرى ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس. وكان ذلك اليوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. وقرىء المنشور بين يدي الملك الناصر يوم جلوسه في دار الوزارة. وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية. وكان يوماً عظيماً وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد. وعمّ الناس جميعهم بالهبات والصلات.

ولما استقرت قدمه في الوزارة والرياسة، قام في الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة، ونظم بحسن تدبيره من الدولة بددها. وجرى في مناهج العدل على جددها. وحيعل إلى جوده وفضله. ونادى إلى رفده وبذله. وكاتب الأطراف بما

صار إليه من السلطان. وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان. واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل، وزوى بفسيح كرمه من بعُد منه وقرُب من أهل الفضل. وتـاب من الخمر، وعـدل عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمّص بلباس الدين وحفظ ناموس الشرع المبين. وشمّر عن ساق الجد والإجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه، وجود جوده شآبيب فضله النائب عن العهاد، وورد عليـه القصّاد والـزوار وأمر بنفـائس الخطب وجـواهر الأشعار.

حدثني بعض الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبه محبة عظيمة. وبلغ من محبته أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عنده مقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يُعلم أين مقره. قال: ولما استـولى الملك الناصر على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكّمه في ماله وبلاده وحسده من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية، كإبن باروق، وجرديك، وجمـاعة من غلمـان نور الدين ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام.

وحدثني أبي رحمه الله قال: حدثني جماعة من أصحاب نور الدين، أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة

صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا، أعظم ذلك وأكبره وتأفّف منه وأنكره. وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري. وكتب في ذلك عدة كتب. فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلاّ أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنـه ما فارق قبول رأيه وإشارته. وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه وطلب منه حساب مصر وما صار إليه. وكان كثيراً ما يقول: ملَك ابن أيوب. قلت: هذا كله مما تقتضيه الطبيعة البشرية، والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك. إلاّ من عصم له، ومن أنصف غدر، ومن عرف صبر.

والذي أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده في ذلك من غير مشاورته هذا مع أن ابن أبي طي متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين، رحمه الله كان قد أذل شيعة حلب وأبطل مشاعرهم، وقوّى أهل السنة.

وكان والد ابن أبي طي من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب. وقد ذكر كله ابن أبي طي في كتابه مفرقاً في مواضع. فلهذا هو في الكتاب الذي له كبير الحمل على نور الدين، رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه ممّا لا يليق به، والله أعلم.

قال: ولمّا ملك الملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين ابن أسد الدين وفرّق عماله. وأعطاه تل باشر ثم أخذها منه، ولقد كان يتألّم لملك الملك النـاصر. ويُقال أنه لما مرض قال: ما اخطأت إلاّ في انفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يُحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب، ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا مُت فصيّروا ابني إسماعيل إلى حلب، فإنه لا يبقى عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضّه غير أنه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب.

حدثني أبي عن ابن قاضي الدهليز وكان من خواص الملك الناصر قال: جرى يوماً بين يدي السلطان ذكر نـور الدين، فأكثر الترحّم عليه. ثم قال: والله لقد صبرت فيه على مثل حزّ المدى ووخز الأبر وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ، ما يعتدّه ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدّها عليّ فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي على الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلي اتضرّر أو أتغيّر فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتي فما أبلغته إربه يوماً. قُلت: قد وقفت على خطاب بخط نور الدين، رحمه الله يشكر

فبه من صلاح الدين رحمه الله وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي.
كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ الإمام شرف الدين بن أبي عصروت رحمه الله وهو بحلب ليوليه قضاء مصر صورته.

(حسبي الله وكفى وفّق الله الشيخ الإمام شريف الدين لطاعته. وختم له بخير غير خاف على الشيخ ما أنا عليه وفي كل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقربني إلى الله، والله ولي التوفيق، والمطّلع على نيتي وأنت تعلم نيتي كما قال. عزَّ من قائل (ومن عنده علم الكتاب) أنت تعلم أن مصر وأقليمها ما هيٰ قليلة، وهي خالية من أمور الشرع. وما تدّخر الدموع إلّا لشدائد. وأنا ما كنت اسخى، ولا اشتهي مفارقتك والآن فقد تعيّن عليك. وعليَّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها وما لنا أحد اليوم لها إلّا أنت ولا أقدر أوّلي أمورها، و أقلّدها إلا لك، حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك وفّقك الله أن تشمّر عن ساق الإجتهاد وتتولى قضاءها وتعمل ما تعلم أنه يقرّبك إلى الله. وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب لله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبوي المعالي، وفّقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي، وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة تصل أنت وولدك عندي حتى أسيّركم إلى مصر والسلام بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين وفّقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، فعني بقاء

الصالحين والأخيار صلاح عظيم ومنفعة لأهل الإسلام. الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير وحسبنا الله ونعم الوكيل. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً).

قال ابن أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم، ما يُستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينـار فسامح بجميع ذلك وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء. وأنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر، وعَرَض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والعاملين لعدة سنين متقدِّمة آخرها سنة أربـع وستين وخمسمائة. فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار. وألفي ألف أردب غلّة، فسامح في جميع ذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه من المعاملين، وأنهى إليـه ما يستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس فأنكره وأكبره وعوّض عنه بعدّة ضياع فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلّة أشياء يطول شرحها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه، ونسخة إسقاط المكوس في أخبار سبـع وستين، وذلك بـإشارة نـور الدين رحمه الله وفي أيامه.

وصف لمعركة حطين نقلاً عن كتابي العماد الأصفهاني البرق الشامي والفتح القسي في الفتح القدسي

(أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ٢/٧٥ ـ ٨٠)

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين) وهي سنة كسرة حطين وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين قال العماد في كتاب البرق:

وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضّت على انتظار احسانه الأزمنة وظهر فيه المكان المقدّس، الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدّسة الممتحنة. وكفى الله شر الشرك وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونُصرت الدولة الناصرية وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث وشاح في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ما جملته أن قال: فبّرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر

العرمرم. ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم. فلما وصل إلى رأس الماء. أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك. وسار السلطان إلى بصرى. وخيّم على قصر السلامة. وأقام على ارتقاب اقتراب الحجّاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لا جين ووالدته أخت السلطان مع جماعته من الخواص. ووصل الحاج في آخر صفر وخلا سر السلطان من شغلهم. ثم سار ونزل على الكرك وأخاف أهله، وأخذ ما كان حوله، ورعى زرعهم وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرّقه على أعمال القلعتين. وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك الأفضل، ولده، مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة والعساكر الكاسرة، . والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمراً من أبيه ويكتب إليه ويقتضيه. وانقضى من السنة شهران وطال بهم انتظار السلطان. فأنهض منهم سرية سرية، وأمرها بالغارة على أعمال طبرية، ورتّب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق. وعلى عسكر

دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النجمي. فساروا مدجّجين وصبّحوا صفورية وساءه صياح المنذرين.

فخرج إليهم الفرنج في حشدهم فآتاهم الله النصر الهني والظفر السني، وشفا منهم حنين الحنايا وأدركوا فيهم منى المنايا، وفازوا وظفروا وقتلوا وأسروا. وهلك مقدّم الاستبار، وجعل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداويّة وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين، سالبين، غانمين، غالبين، فكانت هذه باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات.

وجاءتنا البشرى ونحن في نواحي الكرك والشوبك، فسار السلطان ووصل السير بالسرى، وخيّم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصّت بخيل الله الوهاد والذرى وامتدّ العسكر فراسخ عرضاً وطولاً وملأ بالملأ حزوناً وسهولاً. وما رأيت عسكراً أبرك منه ولا أكبر، ولا أكرث للكفر ولا أكثر. وكان يوم عرضه مذكراً بيوم العرض، ولا شاهده إلّا من تلا ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج، في ليل العجاج مدلج ولمّا تم العرض حسم الغرض وسالت بافلاك السماء والأرض. وتعين الجهاد، وتبيّن الإجتهاد، ثم رتب السلطان للعسكر أطلاباً وحزبه أحزاباً. وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر، عازماً على دخول

الساحل، فأناخ ليلة السبت على خسفين، ثم سار في الأردن إلى ثغر الأقحوانة وأقام هناك خمسة أيام. وقد عيّن مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط.

ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنهم قد جاءهم ما لاعهد لهم بمثله، وإن الأيمان كله قد برز إلى الشرك كله، فاجتمعو واصطلحوا، وحشدوا وجمعوا وانتخوا. ودخل القمص معهم بعد أن دخل عليه الملك ورمى بنفسه عليه، وصفوا راياتهم بصفورية ولووا الألوية، وحشدوا الفارس والراجل، والنابل والرامح، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت وضلال الناسوت واللاهوت ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقانيم، وصلّبوا للصليب الأعظم بالتعظيم وما عصاهم من له عصى، وخرجوا عن الحدود والأحصا، وكانوا عدد الحصى. وصاروا في خمسين الفاً أو يزيدون، ويكيدون ما يكيدون. قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد. وهم هناك مقيمون لا يريمون، والسلطان في كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميهم وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرّضوا له، ويردّوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا وما نبضوا،

وقعدوا ولم ينهضوا. فلو برز للمصاف لطالت عليه يد الإنتصاف.

فلما رأى السلطان أنهم لا يبرحون، ومن قرب صفورية لا يتزحون، أمر امراءه أن يقيموا في مقابلتهم ويديموا على عزم مقاتلتهم. ونزل هو في خواصه العسية على مدينة طبرية. وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها. فحينئذٍ يتمكن من قتالهم ويجهد في استئصالهم. ثم احضر الجاندارية، والنقابين، والخراسانية، والحجّارين وأطاف بسورها وشرع في تخريب معمورها. وأخذ النقّابون في النقب في برج فهدّوه وهدموه، وتسلّقوا فيه وتسلّموه.

ودخل الليل وصباح الفتح مُسفر، وليل الويل على العدو معسكر، وامتنعت القلعة بمن فيها من القُمصية وبنيها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده، سقط في يده وخرج عن جلد جَلَده وسمح للفرنج بسيده ولبده، وقال لهم: لا قعود بعد اليوم، ولا بدّ لنا من لقاء القوم. وإذا أُخذت طبرية أُخذت البلاد وذهبت الطراف والتلاد وما بقي لي صبر وما بعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد حالفه، فما خالفه، ووافقه، فما نافقه، ورحل بجمعه واتباعه وشياطينه وأشياعه. فمادت الأرض بحركته، وغامت السماء من غبرته.

ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا، ففرح السلطان وقال: جاء ما نريد، ونحن أولو بأس شديد. وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع. واستخار الله وسار وعدِم القرار وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضّهم، وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة والبحار الزاخرة أمواجها متلطمة، وأفواجها مزدحمة، فرتّب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدّامهم وحجز بينهم وبين الماء. واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين وحجزت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران وهنئت درجات الجنان. وانتظر مالك واستبشر رضوان، فهي ليلة القدر خير من ألف شهر وتنزّل فيها الملائكة والروح، وفي سَحَرها نشر الظفر يفوح وفي صباحها الفتوح، ومن أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم: فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. بتنا لجنة معروضة والسنّة مفروضة، والكوثر واقفةً سقاته الخلد قاطفة جناته، والسبيل واضح سبيله والإقبال ظاهر قبيله والظهور قائم دليله، والله ناصر الإسلام ومُديلُه.

وسهر السلطان تلك الليلة حتى عيّن الجاليشية من كل طلب وملأ جعابها وكنائنها بالنبل وكان ما فرّقه من النشاب أربعمائة حمل. ووقف سبعين جمازة في جوقة الوغى يأخذ

منها من خلت جعابه وفرغ نشابه، حتى إذا اسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصل أهل النار، ورنّت القسي وغنّت الأوتار إذ ذاك واليوم ذاك، والجيش شاك وللقيظ عليهم فيض، وما للغيظ منهم غيض. وقد وقد الحر واستشرى الشر ووقع الكر والفر، والسراب طافح والظماء لامح والجو محرق والجوى مقلق. ولأولئك الكلاب من اللهاث لهث وبالعيث عيث. وفي ظنهم أنهم يردون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة. ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، وما منه بعد وقد قُطِعت على الفرنج طريق الورود، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود. فوقفوا صابرين مصابرين مقابرين مضابرين. فكلبوا على ضراوتهم. وشربوا ما في أراوتهم، وشفهوا ما حولهم من موارد المصانع، واسترفهوا حتى ماء المدامع. واشرفوا على المصير إلى المصارع. ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة. وقوّوا أنفسهم على الشدّة واستعدوا بالعزائم المحتدّة. وقالوا: غداً نصب عليهم ماء المواضي ونقاضيهم إلى القواضب القواضي، فأجدوا عزم البلاء وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء. وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل ما يعوقها برئت. فهذا لسنانه

شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهـذا سهم مفوّق، وهـذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير ومنتظر للتكبير. وهذا تاج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيا الله تلك من ليلة حراسها الملائكة. ومن سحر أنفاسها الطاف الله المتداركة والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله، فهو يمضي بنفسه على الصفوف ويحضُّهم ويعدُهم من الله بنصره المألـوف، ويغـري المئين بـالألـوف، وهم بمشاهدته أياهم يجيدون ويجدّون، ويصدّون العدو ويردّون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس، حلّ في أول الناس، وكان حصانه قوي الرأس فابعد عن إخوانه ولم يتابعه أحد من أقرانه. فانفرد به الفرنج، فأثبت في مستنقع الموت رجْله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله فلما اخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن. ولما شاهد المسلمـون استشهاده وجَلده وجـلاده، حميت حميتهم. وخلُصت لله نيّتهم. وأصبح الجيش على تعبيته والنصر على تلبيته وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة، وبرّح بالفرنج العطش وأبت عثرتهـا أن تنتعش وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها. فرمى بعـض مطوّعة المجاهدين النار في الحشيش، فتـأجج عليهم استعـارها وتـوهج أوارهـا. فبلوا وهم أهـل التثليث، من نار الدنيا بثلاثة أقسام في الاصطلا والاصطلام،

نار الغرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجاً، وطلب طلبهم المخرج مخرجاً. فكلما خرجوا جرحوا وبرّح بهم حر الحرب فما برحوا، وهم ظماءى ومالهم من ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند. فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية وأصمتهم. واعجزوا وازعجوا، واحرجوا وأخرجوا، وكلّما حملوا ردّوا وردوا. وكلما ساروا أو شدّوا أُسروا أو شُدّوا. وما ربت منهم نملة، ولا ذبّت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب فعادت اسُودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسّعت فيهم الخرق النافذ. فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار. فأحاطت بحطين بوارق البوار ورشفتهم الظبي وفرشتهم على الربى، ورشقتهم الحنايا، وقشرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا ورقشتهم الرزايا. ولما أحس القمص بالكسرة. حَسَر عن ذراع الحسرة. وانثال في العزيمة واحتال في الهزيمة. وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر. فخرج بطلبه ويطلب الخروج وأعوج إلى الوادي وما ودّ أن يعوج. ومضى كومض البرق ووسّع خطا خرقه قبل اتساع الخرق وأفلت في عدة معدودة ولم يلتفت إلى مودة مردودة. وكان قال لأصحابه أنا اسبقكم بالحملة وأفضلكم بالجملة. فاجتمع هو ومؤازروه وجماعة من المقدّمين مظافروه

وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان. وتوا مرّوا على أنهم يحملون ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين، وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقاً، ورمى من اتباعهم فريقاً، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم. ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة ونفذ في الهزيمة؛ وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا ولانوا وثبتوا على ما كانوا، واستقبلوا واستقتلوا، واستلحموا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الخلفاء، وصببنا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكاء. فحطّوا خيامهم على غارب حطين حين رأونا بهم محيطين. فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام. ثم استحرّ الحرب واستمر الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حواليهم، ودارت الدوائر عليهم، وترجّوا خيراً فترجلوا عن الخيل. وجرفهم السيف جرف السيل. وملك عليهم الصليب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظم.

ولما شاهدوا الصليب صليباً، ورقيب الردى قريباً، ايقنوا بالهلاك واثخنوا بالضرب الدراك، فما برحوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملون، وللوثوب يخفون، وبالجراح يثقلون. ومن مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون، ووصلنا إلى مقدّمهم. وملكهم وإبرنسهم. فتمّ أسر الملك وإبرنس

الكرك وأخي الملك جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري بن هنفري، وابن صاحب إسكندرونة صاحب مرميته، وأُسِر من نجا من القتل، من الداويّة ومقدّمها، ومن معظمها، ومن البارونية من اخطأه البوار. فأصابه وساءه الأسار. وأُسِر الشيطان وجنوده. وملك الملك وكنوده، وجُبِر الإسلام بكسرهم. وقتلوا وأُسروا بأسرهم. فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل. وقد استولى الفرنج على ساحل الشام. ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل. فالله، عزّ وجلّ، مسلّط السلطان، وأقدره على ما أعجز عنه الملوك. وهداه من التوفيق لامتثال أمره، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك، وخصّه بهذا اليوم الأغر، والنصر الأبرّ، واليُمن الأسَرّ، والنجح الأدرّ، ولو لم يكن له فضيلة في هذا اليوم، لكان متفرِّداً على الملوك السالفة، فكيف ملوك العصر في السمو والسوم. غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدِّمة، ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة.

ومن عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم مادام فرسُه سالماً، لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه. كان كأنه قطعة حديد، ودراك الضرب إليه غير مفيد. لكن فرسه إذا هلك، فُرِس ومُلِك. فلم

يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت أُلوفاً. ما هو سالم، وما ترجّل فارس إلّا والطعن والرمي لمركوبه كالم. وغنمنا مالاً يُحصر من بيض مكنـون، وزعف موصـون، وبلاد وحصـون، وسهول وحزون، وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى ما استبيح من مال مخزون واستخرج من كنز مدفون.
وصحّت هذه الكسرة وتمّت هذه النصرة يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسـوداً فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد. وما نجا من اؤلئك الأعداء إلّا أعداد. وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى. وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلّى وقيدت الأسارى في الحبال واجبـة القلوب. وفُرشت القتلى في الـوهاد والجبـال واجبة الجنوب، وحطّت حطّين تلك الجيف عن متنها. وطاب نشرُ النصر بنتنها وعبرت بها فألقيتها محلّ الاعتبار. وشاهدت ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار. وعاينت أعاينهم خبر من الأخبار ورأيت الـرؤوس طائـرة، والنفوس بـائرة، والعيـون غـائـرة والجسوم وسمتها السوافي. والرسوم درستها العوافي وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء، عُراة ممزقة بالمازق، مفصّلة المفاصل، مفرقة المرافق، مغلّقة المغارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطّعة الهام، موزّعة الأقدام، مجذوعة الآناف، منزعـة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة

البطون، مُنْصفة الأجساد، مقصفة الأعضاد، مقلصة الشفاه مُخلّصة الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار.

ولما ابصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آراباً، تلَوْت قول الله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الحنث، وما الهب عذبات العذاب في تلك الجثث. وما أحسن عمارات القلوب بفِجّ ذلك الشعب، وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل، فقد حصرت السنة الأمم عن حصره وعدّه. وأما من أسر فلم تكفِ أطناب الخيم لقيده وشدّه. ولقد رأيت في الجبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس. وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس. وهناك العناة عناه والعراة عراه، وذوو الأسرة أسرى، أولو الأثرة عشرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداويّة عوابس، والرؤوس تحت الأخامص. فكم أصْيدِ صيد، وقائد قيد وقُيد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك، وحُرٍ في الرّق، ومُبطل في يد المُحِقّ، ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت وأهلك دونه الطاغوت، وهو الذي إذا نصب وأقيم ورُفع، سجد له كل

نصراني وركع، وهم يزعمونّ أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم. وقد غلّفوه بالذهب الأحمر، وكلّلوه بالدر والجوهر. واعدّوه ليوم الروح المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولا يسع أحدهم عنه التخلّف وللمتخلّف عن اتباعه في نفسه التصرف. وأخْذُه عندهم أعظمُ من أسر الملك. وهو أشدّ مصاب لهم في ذلك المعترك. فان الصليب السليب ماله عوضٌ، ولا لهم في سواه غرض، والتألّه له عليهم مفترض. فهو آلههم تُعفر له جباههم، وتسبّح له أفواههم، يتعاشون عند إحضاره ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضَون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه ويبذلون دونه المهج. ويطلبون به الفرج بل صاغوا على مثله صلباناً يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها. فلمّا أخذ هذا الصليب عظم مصابُهم. ووهت اصلابُهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً. فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب، لم يتخلّف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلاً وأسراً، وملكوا قهراً أو قسراً. ولمّا صح الكسر. وقضي الأمر، وتمكن النصر، وسكن البحر، ضرب السلطان في تلك الحوقة دهليز السرداق وتوافت إليه حماة الحقائق. ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد، وجدّد

الاستبشار بما وجد، وأحضر عنده الأسارى؛ الملك والبِرِنْس، وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتاب الفتح: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقدّم بداية مقدّم الداوية وعدة كثيرة منهم ومن الاستبارية، وأحضر الملك كي وأخوه حفري وأُوْك صاحب جبيل، وهنفري والأبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك.

وكان السلطان نذر دمه وقال: لأعجلن عند وجدانه عدَمَه. فلما حضر بين يديه، أجلسه إلى جنب الملك، والملك بجنبه. وقرّعه على غدره وذكّره بذنبه. وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض.

فقال الترجمان عنه: أنه يقول قد جرت بذلك عادة الملوك، وما سلكت غير السنن المسلوك وكان الملك يلهث ظمأً، ويميل من سكرة الرعب منتشياً، فآنسه السلطان وحاوره. وقثأ سورة الوجل الذي ساوره. وسكّن رعبه، وأمن قلبه. وأمر له بماء مثلوج فشربه وأطفأ به لهبه. ثم ناول الملك الابرنس القدح فاستشفه وبرّد به لهفه. وقال السلطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني أذناً، فلا يوجب ذلك له مني أمناً. ثم

ركب وخلاهما، وبنار الوهل أصلاهمـا. ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وتركّزت أعلامه وبيارقه، وعادت إلى الحمى عن الحومة فيالقه. فلما دخل سرادقه استحضر الإبرنس: فقام إليه وتلقاه بالسيف فحلّ عاتقه. وحين صرع أمر برأسه فقطع، وجُرَّ برجله قدّام الملك حتى أخرج. فارتاع الملك وانزعج. فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامره الجزع، فاستدعاه واستدناه، وأمّنه وطمّنه، ومكّنه من قربه وسكّنه، وقال له ذاك رداءته أردته، وغدْرتُه كما تراه غادرته. وقد هلك بِغيّه وبغْيه.

ثم جمع الأسارى المعروفين وسلّمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي. فقال لهم: أنتم تحت قيدي، وسلّمهم إلى أصحابه فتسلّمتهم الأيـدي. وأمرهم بـأن يأخـذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم. فتفرق العسكر بمن منحته أيدي السبي أيدي سبا وهادتهم الوهاد و الربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحـد، استقام على الجدَدْ، وخيّـم على طبرية، وراسل القُمصيّة وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفى لها وللفرسان بنيهـا بشروط الأيمـان فخـرجت بمالهـا ورجالهـا، ونسائهـا ورجالهـا وسارت إلى

طرابلس، بلد زوجها القمص بمالها وحالها، وولي طبرية قايماز النجمي. وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مُغَلّ البلاد من الصلت والبلقا وجبل عوف والحيانية والسواد وتناصف الجولان وما يقربها إلى بلد حوران. فخلُصت المناصفات، وصفت الصفات، وأمنت الآفات. هذا والسلطان نازل ظاهر طبرية. وقد طبَّ البريَّة وعسكره قد طبق البريَّة.

فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين، طلب الأسارى من الداوية والأستبارية وقال: أنا أُطهِّر الأرض من هذين الجنسين النجسين فما جرت عادتهما بالمفاداة. ولا يُقلعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر وهما أخبث أهل الكفر. فتقدّم باحضار كل أسير داوي واستباري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البُقيا عليه عني الحيف. ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به، وأنه يَضنّ بعطبه. فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين. فأتوه في الحال بمئتين. فأمر باعطابهم وضرب رقابهم ومحو حسابهم. وكان بحضرته جماعة من المتطوّعة المتورّعة، والمتوّنة المتصوّفة. والمتعممّة المتصرّفة، ومن تحت له المعرفة بالزهد والمعرفة. فسأل كل واحدٍ في قتل واحد. وسلّ سيفه وحسر عن ساعده والسلطان جالس ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر

صفوف، والأمراء في السماطين وقوف فمنهم من قرى وبرى فشكر. ومنهم من ابى ونبا وعذر ومنهم من يضحك منه وينوب سواه عنه وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوّال الفعّال. فكم وعد انجزه. وحمداً احرزه وأجراً استدامه بدم اجراه، وبراعتق إليه بعتق براه.

وسيَّر ملك الفرنج أخاه هنفري وصاحب جبيل وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبي، وسبق بهم إلى البلاد الناس. ولم يقع على عددهم القياس. فكتب إلى الصفي بن القابض، نائبه بدمشق، أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإستبارية. فامتثل الأمر في إرهاقهم وضرب أعناقهم. فما قتل إلاّ من عُرِض عليه الإسلام فأبى أن يُسلم. وما أسلم إلاّ آحاد حسن إسلامهم وتأكد بالدين غرامهم.

قال العماد: وما زلت ابحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الابرنس حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المُعزّ بن باديس، وهو ذو البيت الكبير والحسَب الجليل، وكان جده صاحب أفريقيا والقيروان. وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان. ذكر أن الأجل

الفاضل حدّثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرْضة التي صار بها كل قلب عليها حرّان وذلك سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لا يفارق الأنين. فقلت له: ما معناه؛ قد أيقظك الله وما يعيذك من هذا السوء سواه. فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض تقوم بكل ما لله من المفترض وأنك لا تقاتل من المسلمين أحداً أبداً، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهداً. وأنك إذا نصرك الله في المعترَك. وظفرت بالقمص وإبرنس الكرك فتقرب إلى الله باراقة دمهما فما يتم وجود النصر إلّا بعدهما فأعطاه يده على هذا النذر، ونجّاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله فأبلّ من مرضته واستقل بنهضته. واستقبل السنة القابلة بسنّة الغزو وفريضته. ثم جرى من مقدّمات الجهاد، ونتائجها ما جرى، وخيّم السلطان في جموع الإسلام بعشترا. وركب يوماً في عسكره. وعزم على نشر القساطل وطي المراحل ودخول الساحل، والقذف بالحق على الباطل. فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجلّ الفاضل. فقال له: ليكن نذرك على ذكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك ولا تحط غير قمح أهل الكفر بفكرك. فما انقذك الله من تلك الورطة وانعشك من تلك السقطة إلّا ليوفرّ حظك من هذه الغبطة. فتوكل على الله عازماً، وجاز الأردن جازماً، وأرعب جأش الكفر وكسر

جيوشه، وتل عروشه، ووقع في الشرك إبرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره، فأما القمص فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حذره. ولما وصل إلى طرابلس أخافه في منامه القدر وفجأه في صفوه الكدر وتسلّمه مالك إلى سفر.

نص الكتاب الذي وجهه صلاح الدين الأيوبي إلى صاحب المغرب

ابن عبد المؤمن الموحدي يستنصره على الفرنج أثناء معركة عكا

وقد حمله مبعوث صلاح الدين عبد الرحمن بن منقذ

(أبو شامة: الروضتين ٢/١٧١ ـ ١٧٤)

(فصل) في نسخة الكتاب إلى ملك المغرب والهدية. العنوان (بلاغ إلى محل التقوى الطاهر ومستقر حزب الله الظاهر من المغرب أعلى الله به كلمة الأيمان ورفع به منار البر والإحسان.

(بسم الله الرحمن الرحيم) (من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب (أما بعد) فالحمد لله الماضي المشبّه، المُمضي القضية، البر بالبريّة، الحفي بالحنفية، الذي استعمل عليها من استعمر به الأرض، واغنى من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من أجرى على يديه النافلة والفرض، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من

بعض، وصلّى الله على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتاباً فيه الشفاء والتبيان، وبنى الإسلام بأمته التي شبّهها صاحبها بالبنيان، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهّرهم، فنصروه وظاهروا رسوله ﷺ، فنصرهم وأظهرهم ويسّر بهم السبيل، ثم السبيل يسّرهم. وأن الله بهم لذو فضل على الناس ولكنّ أكثرهم ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربّنا إنك رؤوف رحيم.

وهذه التحيّة الطيّبة، الكريمة الصبية، الواجبة الرد، الموجّهة للقصد، العذبة الوِرد، المتنفّسة عن العنبر والورد، وقادة على دار الملك ومدار النسك، وجل الجلالة، واصل الاصالة، ورأس الرياسة، ونفس النفاسة، وحكم الحكم، وعلم العلم، وقائم الدين وقيّمه، وَمقدّم الإسلام ومقدّمه، ومقتضى دين الدين، ومثبت المتقّين على اليقين، ومعلي الموحدين على الملحدين، أدام الله له النصرة، وجهّز به تيسير العمرة، وردّ له الكرّة، وبسط له بلح القدرة، وأوثق به حبل الألفة، ومهّد له درجات الغرفة، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعاً جزيلاً جميلاً، ولطفاً حفياً جليلاً، ويَسّر عليه في سبيله كل ما هو أشدّ وطأ، وأقوم قيلاً. تحية استنير منها الكتاب، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان، أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكناً إلى أن تتيسر الأسباب، والآخر مرام عظيم

ما كُره ان استفتحت به الأبواب، وكان وقت المواصلة وموسم المكاتبة هناءه بفتح البيت المقدّس وسكون الإسلام منه إلى المقيل والمعرّس، وما فتح الله للإسلام من الثغور، وما شرح لأهله من الصدور، وما أنزله عليهم من النور ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي، وإن كانت غربية، فإن الغرب مستودع الأنوار، وكنز دينار الشمس، ومصبُّ أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار، وعنه يقلب الله الليل والنهار، انّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

ولم تتأخر المكاتبة إلّا ليُتمَّ الله ما بدأ من فضله، وليفتح بقية ما لم ينقطع بتقطّع يد لا يستطيع قتال الثغر لانا من خلفه، ولا يستطيع الخروج إلينا خوفاً من حتفه، ولا نستطيع نحن الدخول إليه لأنه قد سوّر وخندق وحاجَزَ من وراء الحجرات وأغلق.

ولما خرج ملك الألمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام. فكان العود لأمة أحمد ﷺ أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم، وظنوا أنه يزعجنا من مخيمنا ويخرجنا من خيمنا،

فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية. فسلك ذات الشمال متوعراً فيها محتجزاً عن لقائها. مُظهراً أنه صريع داء، وما به غير دائها، وكان أبوه الطاغية ملك الألمان، شبيه اللعين اللعين، قائد جيشه إلى سجن سجين، قد هلك في طريقه غرقاً، وخاض الماء فخاضه الماء مشرقاً، وبقي له ولد هو الآن المقدّم المؤخر، وقائد الجمع المكسر. وربما وصل بهم إلى عكا في البحر، متهيِّباً أن يسلك البر. ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أخذاً سريعاً، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لا في النهر، صريعاً. ولكن لله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجاز مُقيمهم بالخنادق واجتياز واصلهم بالمضائق، لكان لنا ولهم شأن، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحوْل الله ثانٍ لا يثنيه من العدوِّ ثانٍ. ولما كانت حضرة سلطان الإسلام وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجّه إليه الإسلام بشكواه وبثّه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغر المحجلة، المؤمرة الكاشفة لكل معضلة الكاسفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة والآثار ظاهرة والصحف عنه باسمه، والسِّيَر به معلمة وعالمة، وكلٌ بجهاده قد سكن إلاّ السيوف في أغمادها، وقد أمِنَ إلاّ كلمة الكفر في بلادها، لا يزال في سبيل الله

غادياً ورائحاً ومواجهاً ومكافحاً، ومماسياً ومصابحاً. يجوز لجة البحر بالمجاهدين، ملوكاً على الأسرة وغُزاةً تُصافح وجوهها بالسيوف فلا يخمد نور الأسرة، يذود الفرق الكافرة، ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد، وكلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، ولولاه لأخمد شراره كلَّ زناد، كان من المتوقع من تلك الدولة الغالية والغرمة الغادية مع القدرة الواقية والهمة المهدية الهاد أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر ممّا أمدّ به غرب الكفار الكافرين، فيملأها عليهم جواري كالأعلام، ومدناً في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بالأيام، تطلع علينا معشر الإسلام آمالاً وتطلع على الكفار آجالاً وتَردنا أما جملة وأما أرسالاً، مسوّمة تمدُّها ملائكة مسوّمة ومعلمة. تقدم حيازيمها أقدام حيزوم تحت أصحابه وإنما هي منه عزمة كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة، ولمّا استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء، فصرحنا به في هذه التحية. فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح. وقد تترك النصرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها ألسنة الصفاح.

وسيّر لحصن مجلسه الأطهر ومحله الأنور الأمير الأجلّ، المجاهد الأمين الأصيل شمس الدين الشرك من حبله، والمفتتح بيد الله من الشام، مدن وأمصار، وبلاد كبار

وصغار، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل، وللإسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع، ولبني الإسلام مصارع، والباقي بيد الكفر منها ثغرا طرابلس وصور ومدينة أنطاكية يسّر الله أمرها، وفكّ من يد الكفر أسرها، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجى إيجابها، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها فالدعاء أحد السلاحين، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين، بعد أن كسر العدو الكسرة التي لم يجبر بعدها. والُجىء إلى حصونه التي للحصر أعدّها. وكان يومها كريماً، ولطف الله فيها عظيماً. قضت كل حاجة في النفس واغنت المسلمين. فأما العدو بعد يومّها فكأن لم يُغْنَ بالأمس. وكانت على أثر غزوات قبلها، فما الظن بالمجهزة بعد النكس، ولم يؤخر فتح البلاد بعدها، إلّا أن فزع الكفار بالشام استصرخ أصل الكفار من الغرب، فأجابوهم رجالاً وفرساناً، وشيباً وشباناً، وزرافات ووحدانا، وبراً وبحراً، ومركباً وظهراً، وركبوا إليهم سهلاً ووعراً، وبذلوا ماعوناً وذخراً، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم، ولا أرساناً تقتادهم. بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج إلى عزمة ملِكه. وخرجت لهم عدة ملوك اقفلت العجمة على أسمائها، وأتت العزيمة بحمد الله على أشخاصها عند لقائها. ومنهم ملك الألمان خرج في جموع برِّية، من الله بَرية، ملأت الفجاج وازدحمت فانفذها العجاج، ومنهم من ركب ثبج البحر

فركب الأجاج العجاج، وامتطى من البحر مشية الـرجّاج، لينصر ديناً شبيه الزجاج، يقبل الكسر ولا يسرع إليه الجبر، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة، وإلى قاع كفر. وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب، ما بين أقوات وأطعمة، والآت وأسلحة، وشلة وجنة، وحديد مضروب وزبرة، ونقدي ذهب وفضة، إلى أن شحنوا بلادهم رجالاً مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة. لا تشرق شارقة إلّا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوّض من الرجال من قُتِل، وتُخلّف من الزاد ما أكِل. فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادة، وقد هان عليهم موقع الحصر، وأعطاهم البحر ما منعهم البر، وبطروا لما كثروا ونظروا، فإنه لا يستطيعـون أن يلقوا ويصحـروا، ويستطيعون أن يحصروا على أن ينحصروا. ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وأزواده وبمن يكثر به من مقاتلته وأجناده. فانقطعت مادة عكا من البحر وحصرنا منازلهم من العود من جهة جانب البر، فحدقـوا على نفوسهم وحثـوا التراب على رؤوسهم. وعقدت عدتهم مائة ألف أو يـزيدون. كلمـا أفناهم القتـل أخلفتهم النجدة فكأنهم قبل الممات يعودون، فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها. فنفذت عمارتها إلى الثغر وأوصلت

إليه الأقوات التي حمل منها البحر ما لا يحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الأسلام في صدور الكفر. وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة. فعدد مراكبهم كبير، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمة والقليل مع العزم الصادق كثير. واستمر مقام العدو محاصراً للثغر محصوراً منا أشدّ الحصر نفير الإسلام والمسلمين، سفير الملوك والسلاطين، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ، كتب الله سلامته وأحسن صحابته، وما اختير للوفادة إلاّ من هو أهلها، ولا حملَ الوديعة إلاّ من هو محلّها ولا بعث لنهج الصلة إلاّ من هو مفتاحها، ولاداء الأمانة إلاّ من هو قفلها. ومهما استوضح منه، وسُئِل عنه فإنه على نفسه بصيرة، ومن البيان ذو ذخيرة، وفي العربية ذو بيت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف. على أن تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فأخلف، وما أجدره بأن يصادف بسطه على بساطه، ونظراً بأذن له في القول على اختصاره، وتوسطه وافراطه، فكل هو به واف، وكل هو للفهم الكريم كاف. والله تعالى يجعل هذه العزمة منا إلى استنهاض العزمة منه بالغة مبلغاً أيسر أهل دينه، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه من الذين اتخذوا لها من دونه والسلام الصادر عن القلب السليم والودّ الصميم، والعهد القديم على حضرة الكرم العلية، وسدّة السيادة الجلية وسلام مودة ما وفدَ الغرب قبلها

مثلها، ورسالة ما خطرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها. وليصل السلام رحمة الله وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء الله تعالى.

وكُتِب في شعبان سنة ست وثمان وخمسمائة والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه.

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة بمسك ثلثمائة مثقال عبير، وعشر قلائد عددها ستمائة حبة ـ عود في سفط عشرة أمناً ـ دهان بلسان مائة درهم وواحد ـ قسي بأوتارها مائة وقوسان ـ سروج عشرون ـ نصول السيوف هندية عشرون ـ نشاب ناسج خاص مريّش كبير ومتوسط ضمن صندوق خشب مجلدة سبعمائة سهم.

وكان إقلاعه من الإسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون، في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة. ووصل إلى طرابلس أول البلاد في الخامس والعشرين من شوّال وأقام بها إلى ثامن ذي القعدة، وتوجه إلى البلاد وكان الإجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي فحص، ودفع كتاب السلطان إليه يوم الخميس سابع ذي الحجة. كان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة، وفي هذا النهار جَلت هدية السلطان إلى خزانته.

وكان انفصاله من مراكش عاشر محرم سنة ثمان وثمانين. ووصل إلى الإسكندرية في الثامن والعشرين من جمادى الآخر، سنة ثمان وثمانين.

لم يحصل من جهة سلطان المغرب ما التمس منه من النجدة. وبلغني أنه عزّ عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم.

أحوال السلطنة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وذلك نقلاً عن رسالة العماد الكاتب المعروفة بالعتبى والعقبى وهي مفقودة باستثناء ما حفظه أبو شامة منها في الروضتين

(أبو شامة: الروضتين ٢/٢٢٨ ـ ٢٣١)

وأما رسالة العماد الكاتب المعروفة بالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها وحاصل ما فيها أن قال: لما توفي السلطان، رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه ويكرمهم والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك، يقرّب الأجانب ويبعد الأقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجزري الذي استوزره، قلت: هو الضياء بن الأثير، أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغوري:

متى أرى وزيركم
وما له من وزر

يـقـلعـه الله فـذا
أو إن قـلع الـجـزر

قال العماد: فلما طلب من الأمراء أن يحلفوا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها، ولم يخْفَ ذلك عليه، ولمّا رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة تركه وسار إلى مصر، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية.

وكان قد أشير على الأفضل بـإخلاء البيت المقـدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله. فأجاب إلى ذلك. وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصـالح القـدس، وباقيهـا على ابن الأميـر علي بن أحمـد المشطوب. فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدّوا أيديهم إلى الـوقف وساءت سيـرتهم وتخوّفـوا من إنكار الملك العـزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل فأفضل عليهم وسكن إليهم. فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار. فأعزّهم العزيز ورفعهم. فاتفقوا على أن تكون كلمة الإسلام مجتمعة على الملك العزيز لإحياء سنّة والده في الجود والبأس والكرم. ومن جملة الأسباب

الباعثة تسلم الفرنج ثغر جبيل من بعض متحفظيه وضعف الأفضل عن استخلاصه. فقيل للعزيز: إن أنت توانيت استولت الفرنج على البلاد. فخرج العزيز بعساكره، وبلغ الأفضل، فضاق صدره، واجتمع بمن في خدمته من الأمراء برأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمي، وكان في إقطاعه بالسواد، وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد، فأرسل إليه فلم يقبل ورحل إلى عسكر العزيز، ورأى الأفضل أن يكتب إلى أخيه بكل ما يحب من اعلاء كلمته والإجتماع عليه ويكون الأفضل من بعض القائمين بين يديه، طلباً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهاب الاحَن، فأشير عليه بغير الصواب، وقيل: أنت الكبير وإليك التدبير فجدّ واجتهد ولا يعلم أصحابك بهذا الخورَ الذي داخلَك والجبن الذي نازلك، ونحن بين يديك، وكلنا عاقدون بالخناصر عليك. ووصل رسول الملك الظاهر والكتب من الملوك الأكابر بالأنجاد المتظاهر للأفضل: وسيرّ الأفضل إلى عمه العادل، وهو بحران والرها كتباً ورسلاً. فلما أبطأ عليه، سيِّر عثمان الزنجبيلي على نجيب ليُسرع ويأتي به عن قريب. وكتبُه واصلة بعزمه على نصره ونجدته وذلك في أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين.

ولم يشعر الأفضل إلّا والعزيز بعساكره قد وصل إلى

الفوّار، فعجّل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقة جيش الأفضل، فأسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس من جمادى.
ونزل العزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يوم الأحد. فلم يزل الأفضل يمانع ويدافع حتى وصل عمه العادل، فكتب إلى العزيز يسأله الإجتماع به، فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزّة، فعذله في أخيه واستنزله عما كان فيه. فقال: عليّ رضاك واتباع هواك. وقال: نفّس عن البلد الخناق وكان قد بلى المدينة منهم بما لا يُطاق، من قطع الأنهار وقطف الثمار. فتأخر العزيز إلى صوب داريا والأعوج.

وكان قد اجتمع عند الأفضل من الملوك، عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهّد. ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكوْن المقام به أرفق. فمرض حتى أيس منه. ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين أياز جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرّر بينهم الصلح. وتزوّج العزيز ابنة عمه العادل.

وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز، في أول شعبان، واحداً بعد واحد. فخرج الظاهر أولاً والتقيا ونزلا بمرج الصفر وبات عنده ليلة ثم رجع. وخرج العادل. ثم الأفضل. فلما اجتمع بأخيه. فارقه وما ثوى. ورجع كل إلى بلده.

ولما استقر الأفضل بدمشق، قضى حقوق الجماعة وشكرهم. ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان ورحل إلى بلده الرها وحران.

ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي منذ تسع سنين وما التقينا إلى في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع
تقضّت بالتفرّق من سنين
وغضّ الدهر عنها طرْف غدرٍ
مسافة قرب عين من جبين
وعاد إلى سجيته فأجرى
بفرقتنا العيون من العيون
فويح الدهر لم يسمح بوصلٍ
يعود به الهجوع إلى الجفون
فراقاً ثم يعقبه ببين
يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يبـدي جيـوش الـقـرب حتى

يـرتـب جيش بُـعـدٍ في الـكـمـين

ولا يُـدنـي مـحـلي مـنـك إلاّ

إذ دارت رحى الحـرب الـزبـون

فليت الـدهـر يـسمـح لي بـأخـرى

ولـو أمضى بـهـا حكم المـنـون

قال: ثم كثر الشر ممّن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأنفوا من ذلك وازمعوا على الإنفصال لسوء تلك الحال. فممّن سار إلى مصر عز الدين أسامة وحرّض العزيز على القيام بنصرة الدولة الناصرية. وعرّفه أن أخاه الأفضل مسلوب الاختيار مع من حوله من الأشرار. وممن سار إلى مصر القاضي محي الدين محمد بن أبي عصرون، وتولى بعد أشهر قضاء القضاء بمصر وأعمالها وذلك سنة إحدى وتسعين. فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام وتبعه العادل، فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الدين علي بن شرف الدين يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن درباس، ثم استقل، ثم عُزل بابن أبي عصرون، ثم أعيد إليه.

وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات وتشاغل عن أمور الناس بـادمان الشـراب مع من حـوله من الأصحاب. ثم اقلع عن ذلك وتاب وجدّ في الذكر والزهد

وأناب، وشرع في كتابة مصحف بخطه وحَسُنت طريقته وظهرت حقيقته وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين، وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بأن العزيز قام يحصر دمشق مرة ثانية، فاشتد غمّ الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل ويأتي به لدفع هذا القضاء النازل. فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع إلى دمشق ففعل. ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة، وتخلّف عنه الأفضل وقصد حلب للاستظهار بأخيه الظاهر، فوثّق معه الأيمان على ما كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل.

وكان العادل أبداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضل، فلم يقبل، فكان العادل أبداً مغتماً لذلك، فبالغ الأفضل في إكرام عمه وإزالة غمه حتى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمة عمه، وضاق أخوه الظافر من هذه الحال.

وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوك والأمراء ممن هم في طاعته، من جملتهم صاحب حماه، وعز الدين ابن المقدم صاحب بارين، فراسلا العادل في الإعتصام به، وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن باروق صاحب تل باشر، فاعتقله الظاهر وبني عمه وطلب منه تسليم

حصنه، فشفع العادل فيهم وكفِل أنه يكفّهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق. فطلب منه الظاهر الوفاء بضمانه، فتعذّر عليه ردهم وتيَسّر له ودّهم، فغضب الظاهر لذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القدوم. فأقبل العزيز وخيّم بالفّوار. وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل فكاتب الأمراء الأسدية من أصحاب العزيز يحثُهم على تركه والإنقطاع إلى حزب الأفضل وسِلْكه، وكانت الأسدية أبداً في عناء من تقدم الناصرية عليها. وراسل العادل أيضاً العزيز يخوّفه من قبل الأسدية ويعرّفه ما انطوت عليه قلوبهم من الغلّ. فكانوا إذا لقيهم عرفوا في وجهه التغيّر عليهم. فرغبوا عنه وحسّنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه ففعلوا.

وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجاء السمين، فدارت الأكراد حوله وقالوا: لا نأمن عليك من الناصر فأبرموا أمرهم وعجّلوا رحيلهم، فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والأسدية عشية الأثنين رابع شوال وكانوا أكثر العسكر. وأعلِم العزيز بهم، فما بالى بانصرافهم وقال: صفوْنا من اكدارهم. ولم يأمر أصحابه باتبّاعهم وردّهم وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة. ثم رحل عائداً إلى مصر، فجاء رسول أبي الهيجاء السمين إلى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفاً ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه، ويتسلّموا ملك الديار المصرية، فتحالف العادل والأفضل على

ملك مصر، أن يكون للعادل الثلث وللأفضل الثلثان، وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش. واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى.

وأما العزيز، فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة، وفَرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل أخوانهم فيمنعوه من دخول البلد. وكان مقدّمهم الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو أكبر الأمراء الأسدية، قد استنابه العزيز بالديار المصرية، فهو مقيم على الصفاء والمودّة والإخاء. فلما وصل العزيز تلقوّه وإلى ذروة سلطنته رقّوه.

وأما العادل والأفضل، فاجتمعا بالمتخلّفين عن العزيز. وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا. واجتهدوا أن يدركوه ويتقدّموا فتأخروا. فأمرهم العادل بالثبات. وتسلّم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل، أبو الهيجاء السمين، بأمر الأفضل والعادل، فرتّب فيها نوابّه وأسكنها أصحابه. وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية ومخالفة الناصرية، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيادة النيل في الإنتهاء والسعر غال. فظهرت ندامة الأسدية وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم. فأرسل إلى القاضي الفاضل

يستوفده للأستزارة، ويسترشده بالإستشاره، فألزمه العزيز بإجابة سؤاله. فخرج إليه، واستبشر الناس بخروجه، رجاء الصلح. وركب العادل وتلقّاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يحب الفريقان. وعفا العزيز عن الأسدية. وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه، فانصرف ومعه أبو الهيجاء السمين، وتولّى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرّة المحرّم اثنتين وتسعين.

ثم إن الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلّل شرابه وطعامه، واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا، وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وإنهم يميلون إلى أخيه، فيصدّقه الأفضل فيما يدّعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تُعجبه بل تغضبه وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلاّ من يشكو من الوزير الجزري.

وكان قايماز النجمي قد لحق بالعادل وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهَرَه وكان العادل بمصر مستوطناً للقصر، فوعد الجماعة بإزالة الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فأخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأول ووصل

الملك الزاهر مجير الدين داوود من حلب إلى أخيه العزيز، من جانب الظاهر، لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شداد.

ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير، ويرافقه فيه، فرآه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام.

ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بما طلبوا، مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أُبرم من الأمر فضاق صدره، وبذل فكره، واستشار أصحابه، فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه ويسلّم لهما حكمه. وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة ثم دخل عليه أخوه الملك الظاهر خضر، فشجّعه وصبّره وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتّبوا رجالاً حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل. وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج. وجاءت الرسل الظاهرية لاظهار المظاهرة. وندب الأفضل، ملك الدين، أخا العادل إليه منه رسولاً. فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي ملك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين ولا شك أنهم اشترطوا على الأفضل

شروطاً وردوّه بها. وأقاموا ينتظرون الجواب. فنفذ من ذكَرَ أن الأفضل أبى ذلك.

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لا يسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن. فراسلوا العزيز والعادل. واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر من عاشر رجب على البلد، مُستظهراً بالعدد والعُدَد، لا يحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلّا عبثاً. فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة. فركبوا وتأهّبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدّهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلّا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة وما عنده علم بما دبّروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا.

ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر. ووصل العادل إلى باب توما. وكان الأمير الأمين به قد استنهضه إليه بكتبه ففتحه له. فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية. ودخل العزيز من باب الفرج وبات في دار عمته الحسامية. وخرج إليه الأفضل ولَقِيَه، وتجرّع من هم ما سُقِيَه.

فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر

الكبير، إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه. وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره. فهرب ليلاً إلى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال: وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق، ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ن‍ ‍م على ما قرّره، ورجع عما دبّره. ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه ويشير بما كان اشترط عليه. فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه والمخصوصين لقربه، فقالوا: لا تنخدع بهذا القول فربّما كانت خديعة، واطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه، فعزّت عليه مراسلة العزيز الأفضل، واجتمع بالعزيز وعتبه، وقرّعه بما أنبىء به وأنّبه، وقال له: أبني وتهدِم، وأوجد مصالحك وتعدِم. فأنكر الحال وأحالها، وانتقض الأمر قبل إبرامه. ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صرخد أخرجه وسدّ طريق الاستنصار على أخيه الظافر حتى أسلم في تسليم بُصرى للظفر بسلامته. وبذلها ولم يتبعها بندامته، ورحل إلى حلب وأظهر الظاهر الاحتفال به. وأما الأفضل فانه سار إلى قلعة صرخد وسكنها. وحوّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطّنها.

وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق، دخل العزيز إليها، يوم الأربعاء رابع شعبان. وجلس يوم الجمعة في دار العدل، واعتقد الناس أنه يطول مقامه عندهم. فلم يشعروا به إلّا وقد برّز للرحيل. وتقدم إلى العادل بأن يتولى البلاد. وفارق دمشق عشية الاثنين تاسع الشهر. ونزل بالمخيّم فوق مسجد القدم. ثم تحوّل إلى الكسوة وودّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر، فلما عاد العادل من وداع العزيز. قُرِىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميع الأحوال وأشاع أنه نائب العزيز وهو سلطانه. وابقى الخطبة باسم العزيز خالية من أسمه، حالية برسمه وضرب الدينار والدرهم على سكنه. واظهر أنه قوي بشوكته وشِكّته. وجلس يوم الأثنين والخميس للعدل وبسط يده لجمع الأموال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فهرست المصادر والمراجع

١ ـ ابن الأثير: علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ ـ ١٢٣٢م).

ـ الكامل في التاريخ دار الكتاب العربي ـ ط٢ ـ بيروت ١٩٦٧.

ـ الباهر في الدولة الأتابكية تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣.

٢ ـ ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف (ت ٨٧٤هـ ـ ١٤٦٥م).

ـ النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (تراثنا ـ مصر).

٣ ـ ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي (ت ٦١٤هـ ـ ١٢١٧م).

ـ رحلة ابن جبير دار صادر بيروت ١٩٦٤.

٤ ـ ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي (ت ٦٨١هـ ـ ١٢٨١م).

ـ وفيات الأعيان وأبناء أهل الزمان ط دار الثقافة بيروت.

٥ ـ ابن شاكر الكتبي: محمد بن أحمد.
ـ فوات الوفيات تحقيق د. أحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧٣.

٦ ـ ابن شاهنشاه الأيوبي: محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧م).
ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق تحقيق حسن حبيش ١٩٦٨ مصر.

٧ ـ ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ ـ ١٢٣٩م).
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية تحقيق د. جمال الدين الشيال مصر ١٩٦٤.

٨ ـ ابن شداد: محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي المعروف بابن شداد.
ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أراء الشام والجزيرة جزء أول وثان تحقيق د. سامي الدهان. المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق ١٩٥٦.

٩ ـ ابن العديم: كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٠٦هـ).
ـ زيدة الحلب في تاريخ حلب تحقيق د. سامي الدهان. المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق ١٩٥١.

١٠ ـ ابن عساكر الدمشقي: علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (٥٧١هـ ـ ١١٧٦م).
ـ تاريخ مدينة دمشق المجلدان الأول ١٩٥١ والثاني ١٩٥٤ مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥١م.

١١ ـ ابن العبري: أبو الفرج غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ).
ـ تاريخ مختصر الدول المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨.

١٢ ـ ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩هـ).
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب المكتب التجاري بيروت د. ت.

١٣ ـ ابن القلانسي حمزة بن أسد بن علي بن محمد أبو يعلي التميمي (ت ٥٥٥هـ ـ ١١٦٠م).
ـ ذيل تاريخ دمشق.

١٤ ـ ابن كثير: عماد الدين إسماعيل، الحافظ الدمشقي (ت ٧٧٤هـ).
ـ البداية والنهاية. مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦.

١٥ ـ ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ).
ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١ ـ ٣ تحقيق د. جمال الدين الشيال دار القلم ١٩٦٠.
ـ الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع دار الكتاب القاهرة ١٩٧٢م.

١٦ ـ أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٣٢هـ ـ ١٣٣١م).
ـ المختصر في أخبار البشر ط دار المعرفة ـ بيروت د. ت.

١٧ ـ أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقي (٦٦٥هـ ـ ١٢٦٨م).
ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.
ـ الجزء الأول (القسم الأول) تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥٦.
ـ الجزء الأول (القسم الثاني) تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ـ سلسلة تراثنا ـ القاهرة ١٩٦٢.
ـ الجزءان الأول والثاني في مجلد واحد. ط. دار الجيل ـ بيروت د. ت.
ـ المذيل على الروضتين. تحقيق عزت عطار الحسيني

بعنوان تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجري. دار الجيل بيروت ١٩٧٤.

١٨ ـ العماد الأصفهاني: أبو عبد الله محمد بن صفي الدين الملقب عماد الدين الأصفهاني (٥٩٧هـ ـ ١٢٠١م(٨

ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ت محمد محمود صبح القاهرة ١٩٦٥.

ـ تاريخ دولة آل سلجوق ١٩٠٠ مصر.

١٩ ـ القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ ـ ١٤١٨م).

ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا ـ ط دار الكتب المصرية ١٩١٣ ـ ١٩١٩).

٢٠ ـ المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ ـ ١٤٤٢م).

ـ السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٣٤.

ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار مكتبة العرفان بيروت د. ت.

ـ اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة ١٩٧٣.

٢١ ـ ياقوت الحموي: شهاب الدين ابن أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٩م).
ـ معجم البلدان تحقيق أمين الخانجي القاهرة ١٩٣٢.

٢٢ ـ النعيمي: عبد القادر بن محمد النعيمي (ت ٨٢٧هـ ـ ١٥٢١م).
ـ الدارس في تاريخ المدارس ١ ـ ٢ تحقيق جعفر الحسني مطبعة الترقي ١٩٤٨ ـ ١٩٥١.

المراجع العربية والمعربة

١ ـ أشباخ يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة محمد عبد الله عنان القاهرة ١٩٥٨.

٢ ـ الباشا، حسن: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار القاهرة ١٩٥٧.

٣ ـ باركر، أرنست: الحروب الصليبية ترجمة الباز العريني ط٢ دار النهضة العربية بيروت.

٤ ـ بدوي أحمد: الحياة العقلية في عهد الحروب الصليبية بمصر والشام القاهرة ١٩٥٣.

٥ ـ بروكلمان كارل: تاريخ الأدب العربي ترجمة يعقوب السيد بكر دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

٦ ـ الجميلي رشيد: دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠.

٧ ـ حبشي حسن: نور الدين والصليبيون القاهرة ١٩٤٨.
ـ الحروب الصليبية الأولى القاهرة ١٩٤٧.

٨ ـ حمزة عبد اللطيف: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي دار الفكر العربي مصر ١٩٦٨.

٩ ـ حتي فيليب: تاريخ العرب المطول ط ٤ مطابع غندور بيروت ١٩٦٥.

١٠ ـ زيدان جرجي: تاريخ آداب اللغة العربيـة دار الهلال ١٩٥٨.

تاريخ التمدن الإسلامي دار الهلال ١٩٥٨.

١١ ـ شميساني حسن:
ـ مـدارس دمشق في العصـر الأيـوبي ـ دار الأفـاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٣.

١٢ ـ رستم أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم وصلاتهم بالعرب دار المكشوف بيروت ١٩٥٦.

١٣ ـ ربيع محمد حسنين: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤.

١٤ ـ **العريني، الباز**: مصر في عصر الأيوبيين سلسلة الألف كتاب (٣٦٩).

١٥ ـ **عاشور سعيد عبد الفتاح**: الحركة الصليبية ١ ـ ٢ ط. ١٩٦٣ مصر.

ـ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى جامعة بيروت العربية ١٩٧٧.

ـ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب بيروت ١٩٧٢.

١٦ ـ **العبادي أحمد مختار**: في التاريخ العباسي والفاطمي دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١.

١٧ ـ **عنان محمد عبد الله**: دولة الإسلام في الأندلس لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر.

ـ تراجم إسلامية ط ٢ الخانجي مصر.

١٨ ـ **كرد علي محمد**: خطط الشام دمشق. مطبعة المفيد ١٩٢٨م.

١٩ ـ **كيلاني محمد سيد**: الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام مكتبة مصر ١٩٤٩.

٢٠ ـ **نقاش زكي**: العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨.

٢١ ـ نسيم جوزيف: العرب والروم واللاتين دار المعارف ط٢ ١٩٦٧.

٢٢ ـ قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية عالم المعرفة ـ الكويت آيار ١٩٩٠.

٢٣ ـ ماجد عبد المنعم: الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي ط٢ مكتبة الجامعة العربية بيروت ١٩٦٧.

المراجع الأجنبية

1 - Alphançléry (paul): la chrétienté et l'idée des croisades Paris 1954.

2 - Brehier (louis): l'Eglise et l'orient au moyen age - les croisades Paris 1928.

3 - Encyclopédie de l'Islam N. Ed. 1 Maisonneuve Paris.

4 - Elisséef (Nikitia): NÛR AD - **Din** institut francais de Damas 1967.

5 - Grousset: histoire des croisades et du royaume francais au jerusalem Paris 1934 - 36.

6 - Mich aud: histoire des croisades Paris 1853.



فهرست المحتويات

